جورج سيمنون



الضاحية

رواية بوليسية

ISBN 978-9953-0-2824-8

الضاحية



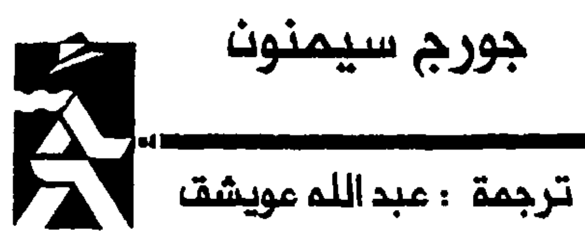
اسـم الـمـؤلـف : جورج سيمنون
العنوان الأصلي للكتاب : Faubourg
عـنـوان الـكـتـاب : الضاحية
الـمـتـرجـم عبد الله عويشق
الـنـاشـر : دار المدى للثقافة والنشر
تـاريـخ الـطـبـع : ١٩٩٦

الـلـوغـو : علي شمس الدين

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,.Fax : 9611- 426252



جورج سيمنون

ترجمة : عبد الله عويشق

الضاحية

منشورات



ـ ١ ـ

كانا وحيدين في النزول من القطار. وقد أنفا الهبوط الى النفق، فانتظرا ان يعبر القطار لكي يقطعا من فوق القضبان الحديدية. وتعاقبت العربات أمامهما من دون أية أنوار، مسدلة الستائر على النوافذ، فالجميع كانوا نياماً.

وفي المحطة، لم تكن العين ترى أحداً. وحالما خمدت جلبة رحيل القطار، خيمت على المكان الرغبة بأن يكون الكلام بصوت خفيض والسير على رؤوس الأصابع.

قالت المرأة، وعقبا حذائها العاليان يتلويان على الحصى المفروش تحت قضبان السكة:

ـ لا يوحي المكان بأي انعتاق أو مرح.

ولم يكن فيما قالت ما يستدعي إجابة. وهي بكل الأحوال لا تطلب شيئاً. لم تكن تتذمر. بل تبدي ماتبين لها، لا أكثر، ومن دون مرارة. وبعد؟

كان دو ريتر يعرف جيداً ان هنالك رجلاً يتولى المناوبة عند أقصى نهاية رصيف المحطة، بالقرب من بوابة المغادرة. ولاحظ أيضاً نوراً واهناً في أحد المكاتب. مكتب معاون مدير المحطة أو شيء من ذلك القبيل.

كانت محطة من أردأ الأنواع، متوسطة الاتساع، بستة خطوط، وبأنفاق عبور، فيها مقصف واسع للمسافرين، ومشرب، ومساحة في السقف مكشوفة مغطاة بزجاج كساه الدخان.

قديماً بدا له انها كانت كبيرة.

وقال دو ريتر وهو يمد يده بالبطاقات الى المستخدم:

- هاك... سآتي غداً للحوائج.

وسار في الأمام. ولم يكبد نفسه ابداء ما يقضي به الأدب واللياقة نحو رفيقته.

في العتمة، كانت هنالك سيارة أجرة صغيرة ملازمة لمكانها، واحدة فقط، ولكن دو ريتر مرّ من دون أن يلقي نظرة عليها وقصد المقهى القائم في الجهة المقابلة، ودفع الباب:

- ادخلي.

ودخلت. وبينما أخذ هو يتجه الى طاولة رخامية السطح، همست هي :

- أنا عائدة حالاً.

كان ذلك جديراً بها فعلاً. ويتكامل مع مظهرها أن تجري هكذا الى المغاسل، حيث يمكن ان يتخيلها المرء وقد بعثرت مشطها وعلبة ماتذره من مسحوق على وجهها، وحمرتها، والله يعلم ماذا أيضاً.

- نصف زجاجة، أيها النادل. -

وقد غضن دو ريتر جفنيه. اذ كان يعرف المقهى من قبل، ولكنهم وسموه. وكما الأمر دائماً ورغم الساعة، فقد كان ثلاثة زبائن جالسين الى طاولة مع المعلم، غير بعيد عن حاجز المحاسبة المصنوع من خشب سنديان نير اللون. المقاهي الأخرى في المدينة كانت مغلقة. وهذا كان الملاذ الأخير.

عندما صعدت الشابة من جديد كانت تفوح منها رائحة البودرة التي ذرتها على وجهها ورائحة عطر خفيف.

سألته وهي تجلس :

- هل تتذكر المكان ؟

كانت وديعة الطبع ومكتنزة الجسم، مبتذلة، ترتدي حريراً أسود. كانت فتاة طيبة. وأخذت تفحص المكان بدورها.

وكررت :

- فعلاً، لا يدل المكان على الانعتاق والمرح. أهذا هو المكان الذي كنت تتردد عليه ؟

وهز كتفيه وحل أزرار معطفه، معطف صوفي أسود، يتجعد وبر الخيوط على سطحه ملتفاً على نفسه، كان محزوماً جداً عند الخصر، والمعطف، بالإضافة الى قبعة عريضة الحواف من اللباد، كان ذلك يضفي على دو ريتر مظهر ممثل يقوم بجولة. وكان لون بشرته كامداً، وحدقتاه معتمتين لامعتين، شارباه رقيقان، وكان لا يكف يحركهما بيده ذات الخواتم. وللوهلة الأولى، فهو يترك انطباعاً بالشباب، إنما لدى إمعان النظر من مسافة أقرب، تكتشف النظرة احتقاناً دهنياً، وتعباً، ولحماً بدا يغدو رثاً.

وسألت ليا :

- هل كتبت لي العناوين ؟ فقد تقرر أنك لن تأتي معي الليلة للنوم.

لقد سافروا في الدرجة الثالثة وملابسهما علقت بها رائحة قطارات. وقد بدأ النادل يغلق النوافذ الخشبية الخارجية، والزبائن الأخيرون يشربون جعتهم. أما دو ريتر، هو، فقد كان يكتب على صفحة انتزع ورقتها من دفتر صغير.

-... شارع سان-دوني... ستجدين بسهولة... أما البيت فالمرء يفطن إليه على الفور...

وإذا لم يمش الأمر...

وسكت، لأن النادل كان يمر أمامه وكان الأفضل الا ينطق بأسماء هذه الشوارع.

-... والبيت هو في الأخير كلياً، على اليسار... وحالما تصبحين هناك، تكتبين لي على كوة البريد المحفوظ... أيها النادل ! ماحسابك؟

وخرجا. لم تعد سيارة الأجرة هناك. كانت الشوارع خالية، ملطخة برذاذ مطر ناعم انقطع.

وسألت ليا أيضاً :

- وبالنسبة لهذه الليلة ؟

وكانت حقيبة يدها، محشوة بمستلزمات الزينة، بقدر ما يمكن لحقيبة يد فردية أن تحشى به، وتحتوي على خفين للسفر كانت وضعت قدميها فيهما في عربة القطار.

- كل منازل الشارع فنادق... اقرعي أي باب...

- إذن طابت ليلتك.

وقبلته ساهمة، وهي تنظر الى لافتة أحد المتاجر. أما هو فقد تابع سيره، وفي يده حقيبة سفر صغيرة، وياقة معطفه مقلوبة ردها على عنقه.

كان يعرف الطريق وكل أحجاره واحداً واحداً. ففي نهاية الزقاق، سيأخذ هو الشارع العريض على اليمين، وسيمر من أمام تمثال النساء العاريات الثلاث، نساء عاريات يمددن سمعاً الى شاعر جالس على مقعد وثير.. ثم رصيف النهر... ثم...

وبلغه صوت باب الفندق يفتح لليا ثم يغلق من جديد. وبات يمكنه أن يعتقد نفسه منذئذ الكائن الحي الوحيد في المدينة.

ولكنه لم يعمد الى إبطاء خطاه الا بعد أن تجاوز الجسر فقط. كانت قضبان الحافلة الكهربائية تكاد تمس الرصيف. وينعطف الشارع بعض الشيء فيصبح شارع سان - روش. جميع الدور فيه كانت محلات تجارية ويعرفها هو جميعها. وأمام دكان بائع الزبدة حدث ذلك، إذ دهست حافلة كهربائية أحد الأولاد ذات يوم أحد صباحاً.

ومابرح يمشي. فشارع سان روش كان روح الضاحية، ولكن مابعده كان أكثر خصوصية صميمة بالنسبة لـ : دو ريتر، بيوت جديدة من طبقة واحدة، وساحة الصنائع نظيفة وظليلة، أشبه بحديقة عامة.

وفي ركن جادة المدارس، تقدم بضع خطى تحثها اللهفة وتوقف أمام باب مطلي بالأخضر. وكما هو الأمر بالنسبة لمعظم بيوت الحي، كانت هنالك صفيحة نحاسية بالقرب من الجرس، وأمكنه ان يقرأ : «السيدة الأرملة شوفالييه».

كان أحدث ضجة. ولابد أن أحداً في البيت لم يكن نائماً، أو أن نومه كان خفيفياً. فقد صدرت حركة عن الطبقة الأولى. ورفع رأسه، فانتبه الى طيف وراء الستارة التي كانت يدما تفتحها.

وابتعد. تجنب أن يفكر. واجتاز ساحة الصنائع، وفي شارع الكومونة، توقف أمام الفندق. الفندق الوحيد في العالم، بالنسبة اليه، الذي لم يكن له اسم. فقد أقام ثمانية عشر عاماً في منزل قريب منه. وقد لعب الـ «دواحل»، كرات الزجاج الصغيرة للعب الأطفال، في باحته مع ألبير، الابن، الذي كان صديقه. وسبق له تأمل لوحة المفاتيح في المكتب ذي اللباد الموبّر الأحمر.

وقد بات بالنسبة اليه هو «الفندق»، بكل اختصار، وكأنما هذا، كان الوحيد الذي له وجود في العالم.

وضغط على الجرس. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرنه فيها وهو عازم على الدخول الى احدى غرفه. ووجب عليه ان يرن الجرس ثلاث مرات. وأخيراً سُمع صوت خطى تجر نفسها في رواق المدخل، وتم سحب سلسلة حديدية. وظهرت كوة ضوء ضيقة.

- أريد غرفة.

كان رجل هرم غارق في النوم يشد بنطاله الذي أخذ ينزلق عن جسمه.

- أما يزال البير هنا؟

- لا أعرف أنا. فالفندق يملكه السيد تيهون...

-الأب أم الابن ؟

- انقضى زمن طويل على موت الأب.

- اذن، فهو البير...

كانت نبتة دسمة الأوراق تستوي على عرشها في وعاء أزرق، فوق إفريز الدرج. والرائحة لم تتبدل.

ووراء الباب الزجاجي، الباحة...

- الغرفة الأولى على اليسار، في الطبقة الأولى... النور ستجده...

ومضى الرجل الهرم عائداً الى النوم في المكتب.

الشهر هو أيار. وفي غير هذا المكان لم يكن دو ريتر يعرف التاريخ أبداً. لكن هنا، فقد كان يعرفه من مجرد ألق الجو وسيولته.

وكذلك فقد عرف وهو مايزال في سريره أن الساعة هي الثامنة لدى سماعه في الشارع الواسع وراء الفندق خطوات الجياد وأبواق لواء الخيالة.

وفي الجهة الأخرى من شارع الكومونة، رنين منبه الحافلة الكهربائية، الذي لا يشبه رنين أية منبهات للحافلات في المدن الأخرى.

وخارجاً، يلذع البرد أطراف الأصابع، ولكن الهواء، نضر لحد أن يبتلعه المرء، كان مفعماً شمساً. وكانت صرخات الأطفال تتفجر في باحة المدرسة وراء الجدار المبني بآجر أحمر. وعربة صغيرة لجمع القمامة، تابعة لمصلحة مقالب القمامة تنتقل من حاوية الى حاوية.

كان دو ريتر يعرف ذلك كله عن ظهر قلب. وكان ينتظر صوت قرع الجرس الذي سيضع حداً لضوضاء المدرسة ويعيد

جمع التلامذة أمام كل غرفة صف. وكان جرس آخر يصدر رنينه، وهو جرس بائع الخضار الذي يدفع عربته منتقلاً من باب لباب... وانفتح الباب الأخضر. ووضعت امرأة سلة على عتبته وترددت في أن تجتاز الرصيف، ذلك أنها لم تكن قد رتبت شعرها بعد.

كانت قدماها في خف من قماش صوفي، وتلبس رداء خاصاً بداخل المنزل، يضم كل الجسم.

- اعطني كيلوي بطاطا يا سيد هوبيرت.

فتح الباب المجاور كذلك. وبرزت امرأة أخرى في رداء ضامّ لداخل المنزل، بادية التأثر بالبرد. وكانت هذه امرأة بدينة، ذات شعر معتم، زوجة الشرطي جامار.

- على مايرام يا سيدتشوفالييه ؟

- لا بأس. لكنني هذه الليلة أيضاً عانيت طوال الليل من آلام عصبية...

وكان دو ريتر قد سار حتى نهاية الشارع، ثم استدار على عقبيه وهو على الرصيف الآخر. بينما تجمعت جارات آخريات حول عربة الخضار، التي تلمح العين عليها أول ثمار للكرز.

كانت ربات البيوت تضطرب حركتهن وهن ينتقلن هنا وهناك، في جهة الشارع التي تغمرها الشمس. بينما دو ريتر يتبع الرصيف المغمور بالظل.

وكان قد لاحظته العين. آكانت له فعلاً سيماء ممثل؟ بكل الأحوال كان له مظهر شخص غريب. وبخاصة أن له سالفين طويلين يصلان الى خديه. ثم طريقته في السير وهو يشهر خيزرانة ذات مقبض ذهبي، وطريقته في النظر الى ماحوله.

وقالت إحدى النساء :

- أرأيت هذا ؟

وما كان من السيدة جامار، زوجة الشرطي، والتي تقضي أيامها وراء النافذة إلاأن أضافت لمزيد من الدقة :

- إنها المرة الثالثة التي يمر فيها هذا الصباح. يخيل للمرء أنه يبحث عن شيء.

- لعله يبحث عن غرفة يستأجرها.

وكانت هنالك غرفة على بعد بيتين. ويمكن رؤية ماهو مكتوب على لوحة الشاخصة الصفراء : غرفة مفروشة للإيجار.

ولكن الرجل لم يأبه للأمر. تابع يمضي مرة أخرى حتى ركن الشارع، ملتفتاً بلا انقطاع لورائه، وأخذت محبات الثرثرة من النساء يتسلين الآن وهن يطرحن الافتراضات.

- أيمكن أنه شخص من الشرطة السرية يا سيدة جامار؟...

- أو هو شخص يبحث عن ضربة يضربها ...

- يذكرني كلامك بأنني سمعت صوتاً هذه الليلة وكأن أحداً يلمس باب بيتي...

وهرعت إحدى النساء جرياً عائدة الى بيتها فقد كان شيء يحترق على النار. كان الأطفال قد سكتوا في باحة المدرسة، وبائع الخضار يلوح بجرسه متمسكاً بذراعي عربة الجر.

وظلت ربتا منزل أو ثلاث منهن برهة أخرى منصرفات الى الثرثرة في الشمس. وأحضرت خادمة الطبيب الذي كان أبعد قليلاً، سطلا وفراشي وضعتها على الرصيف وبدأت تغسل وهي تدلق الماء بغزارة حجارة العتبة الزرقاء.

كانت أدنى نأمة صوت تُسمع من بعيد جداً.

فقط الحافلة الكهربائية كانت تمزق بضوضائها، كل أربع دقائق، صمت الضاحية.

عندما كان دو ريتر صفيراً...

وأراد أن يمر مرة أخرى. وتوقف أمام البيت ذي الباب الأخضر. ونظر اليه يتأمله من أعلى لأسفل، نظيف وبمنتهى الوضوح، بستائر مبطنة في كل النوافذ مع أحواض زهر فيها جميعاً.

واضطرب بغتة. فقد أخذت احدى الستائر تتحرك. فمشى عدة خطوات، بسرعة. وأخيراً، وربما على سبيل التماسك، فإنه دخل لعند بائع قرطاسية بجانب المدرسة، حيث كانت تسود رائحة قلم الرصاص والممحاة :

- أعطني... أعطني قلماً... ثلاثة أقلام...

- أي رقم ؟

- رقم : ٢.

كانت تلك هي الأقلام التي يأخذها عندما يذهب الى المدرسة، بالاضافة الى قلم رقم : ٣ لـ «تظليل».

- هل انقضى زمن طويل على وفاة السيد شوفالييه؟

- لابد أنه مضت ثلاث سنوات على ذلك للآن... وكان قد مضى زمن طويل عليه وهو بحال...

- آ،... كان مريضاً؟

- لا يمكن قول ذلك... كان يزداد نحولاً... ولا يكلم أحداً... وأخذ تماماً يغدو نصف واع...

- وهل تملك السيدة شوفالييه مالا ؟

ـ لديها بيت... وهي تؤجر طبقة منه لآنسة عجوز... ثم ان المصرف يدفع لها ريعاً صغيراً. تخيل ان السيد شوفالييه اشتغل فيه طوال خمس وثلاثين عاماً...

وعندما خرج من لدى بائع القرطاسية، نظر مرة أخرى ناحية الباب الأخضر، ثم ابتعد بخطى واسعة.

وأصابت الدهشة مستخدم مستودع الأمانات. وقال وهو يشير إلى حقيبة بالغة الضخامة منتصبة في ركن :

ـ أهذا الصرح القائم لك ؟

كان يهزل، ويقيس بعينيه الحقيبة التي بارتفاع قامته، من خشب أسود، ومطوّقة فوق ذلك بسيور نحاسية.

ـ ذلك أنها على قدر من وزن. أتأخذها معك؟

وبدا دو ريتر يبتسم بتواضع متفضل.

ـ ليست سريراً على الأقل فهي يمكن ان تتسع لرجل... وابتسم مرة أخرى، وركز وضع الحقيبة على سقف سيارة أجرة صغيرة. وبالطبع فقد عاد الهزل من أوله.

ـ هل تحوي الحقيبة شيئاً، قل ؟

ثم في الفندق. حدث نفس الشيء. فقد تقدم صاحب الفندق شخصياً على الرصيف. وكان هو ألبير نفسه، الذي بات بديناً، وأصبح شعره أكثر حمرة نحاسية بكثير منه عندما كان صغيراً. ولم يفطن الى حقيقة شخصية دو ريتر.

ـ أهذه كلها للصعود بها الى غرفتك ؟ ما بالك، لابد أن لديك ملابس داخلية تكفيك لوقت لا بأس به.. واستمر يبتسم. وحمل رجلان الحقيبة للصعود بها. ودخل دوّ ريتر غرفة المكتب ليملأ الاستمارة فلمح فتاة صغيرة تسير على أربع

وسأل متوجها الى البير

- أهي لك ؟

- إنها ابنتي الثالثة. الاثنتان الآخريان في المدرسة.... ما المهنة التي يجب أن أسجلها ؟

- ضع... هم م م... ضع : ممثل تجاري.

- ما عدت أدهش لحقيبتك. فيها عينات من دون شك؟

وهز دو ريتر رأسه نفياً، متخذاً هيئة يحيط الغموض بها.

- إذا ما سجلت كلمة ممثل تجاري، فذلك تسهيلاً للأمر.

- آه ! أنت لست...

- ش. ش !... لنكن كتومين يا سيدي العزيز.

وغمز بعينه كرجل له سره.

- هل تنوي الاحتفاظ طويلاً بالغرفة ؟

- ربما ليوم واحد، ربما شهر، ربما سنة ! أعندك صندوق حديدي في الفندق ؟

- صندوق حديدي ؟ وراءك... اتركي السيد بسلام يا أليس.

- هل تسمح بأن أودع فيه شيئاً ؟

- طبعاً.

كان أمراً مدهشاً رؤية البير من جديد وهو هكذا، يحتقن الدهن تحت بشرته، بوجهه نير اللون والسمين وعينيه الساذجتين، بل فوق ذلك كله فإنه أخذ يدخن نوعاً من سيكار رقيق مضحك كان يلطخ بالصفرة شفته العليا.

- أنا عائد خلال لحظة...

وفي حين أغلق المسافر على نفسه في غرفته، فإن البير ذهب لرؤية زوجته التي كانت تصدر أوامر في المطبخ.

- هل رأيته ؟
- نعم. كنت في الممشى.
- ما رأيك فيه ؟
- لا أعرف. إنه غير مألوف الشخصية.
- أقر لي بأنه ليس ممثلاً تجارياً... وهو سيسلمني شيئاً لأضعه في الصندوق...
- ماله ولابد. في هذه الحال، قم بعده وأقطع له وصلا به حسب الأصول. فالمرء لا يعرف أبداً.

ولم يطرح الأمر. فقد أحضر دو ريتر مغلفاً كبيراً أصفر وطلب شمعاً أحمر. وأمكن المثور على طرف قضيب منه في أعماق أحد الأدراج، وبأصابع ماهرة صنع خمسة مواقع أختام سحقها بفص خاتمه المحفور.

وانصرفت الطفلة، التي أذهلها ماتراه، تتابع حركات الرجل الغريب بعينيها المتسعتين دهشة. وانحنى البير لينظر الى الرسم الذي انطبع على الشمع.

وقال دو ريتر بأطراف شفتيه.
- إنها أسلحة عائلتي.
- أهذا ما يجب أن أودعه في الصندوق الحديدي؟
- اذا تكرمت . إنها وثائق على أعلى درجة من الأهمية ولا يمكنك تخيل العواقب التي يمكن أن تترتب على اختفائها...
- ماذا لو أودعتها في مصرف..
- لن تكون في مأمن.
- آه !...

- هاقد مرت أربع سنوات وهذه الأوراق تتبعني عبر أمريكا الجنوبية، ثم أوقيانوسيا، والهند...

- وهل قدمت من الهند ؟

- منذ ستة أشهر فقط كنت أيضاً في بومباي. وبحث في جيب سترته وسحب منه ورقة حريرية تضم حجرة خضراء.

- هذه زمردة أحضرتها معي من هناك على سبيل الذكرى.

- هل تسمح ؟... مارت، تعالي انظري.

وانكب الاثنان على الحجرة معاً بينما أخذت الصغيرة ترفع قامتها على أطراف قدميها.

وسأل البير أخيراً :

- ألم تكن تعرف هذه المدينة ؟

- لكن بلى ! قد يكون من الصعب وجود مدينة لا أعرفها. وهكذا، فأنا أراهن على انك كنت تذهب الى المدرسة في شارع ليل... ولك أخت أكبر منك، رونيه.

- هذا صحيح.

وأغمض عينيه نصف إغماضة على طريقة من يسيرون في نومهم، ويرون الغيب.

- كان لها نمش في الوجه. وتوجب اجراء جراحة لها في احدى العينين.

- كيف يمكن هذا... فكل هذا حقيقي... لقد تزوجت شقيقتي صيدلانيا في شارع سان جيل... إنك أقمت في المدينة أليس كذلك؟ في أي فترة ؟

- شش... أتريد أن أقول لك من هو قنصل فرنسا في بومباي ومن حاكم في تاهيتي ؟

- بل أفضل معرفة متى كانت إقامتك هنا...

الزوج والزوجة تيهون، بالإضافة الى الفتاة الصغيرة معهما التي، هي، لم تكن تفهم، إنما كانوا جميعهم ينظرون اليه بعيون تملؤها الروعة.

- ستجعلني أعتقد أن لك الى حد ما ملكات فقير هندي!..

- من يدري ؟

- بالمناسبة، نسيت ان أسالك شيئاً. هل أنت عازم على تناول وجبات طعامك في الفندق ؟

- لا أظن. فعندي أعمال كثيرة يجب أن أؤديها. وسأتلقى دعوات من كل جانب.

- أرأيت كيف أنك تعرف المدينة !

- قلت إنني سأتلقى دعوات. ولم أقل إن الدعوات سيوجهها اليّ أشخاص بيني وبينهم معرفة. واختتمت السيدة تيهون قائلة وهي تضحك :

- أنت مغرق في السرية بالنسبة إليّ. وكذلك بالنسبة لألبير أيضاً الذي راح يسأل نفسه الآن عما اذا لم تكن تسخر منه.

كانت حقيبة السفر الكبيرة مغلقة بقفلين. ولم يشعر دو ريتر الذي نصبها في ركن من الغرفة بحاجة لأن يفتحها وبعد ان اطمأن الى أن ادراج الخزانة المنخفضة الخاصة بالملاءات والملابس الداخلية تغلق بالمفتاح، فإنه رتب فيها محتويات حقيبة يده: قميصان رثان، زوجا جوارب، وموسى حلاقة، وفرشاة ذقن، وربطة عنق بدل.

وكان ذلك كل شيء! وحسب ماكان متبقياً معه في جيبه: ١٣٧ فرنكاً ونصف بالضبط. ثم خرج، واشترى بخمسة فرنكات

شوكولا من البقالية ورجع الى الفندق. كانت الفتاة الصغيرة ماتزال على الأرض في المكتب وأمها تجري حسابات أمام خزانة صغيرة طراز أمانة سر مصنوعة من خشب أكاجو.

- أتسمحين يا سيدتي...

وقام بتقديم الشوكولا الى الفتاة الصغيرة.

- ولكن، يا سيدي... هذا كثير جداً...

- إنه للازعاج الذي تسببت به لكما قبل قليل بشأن مغلفي...

- لا تأكلي كل شيء الآن يا اليس.

وعندما خرج، كان يعرف تمام المعرفة أنه سيتم استرداد قطع الشوكولا من الصغيرة، وأنه سيجري الاغلاق عليها في الخزانة وأن الطفلة سيتوجب عليها ان تبكي لتحصل على قطعة منها.

ولكم كان يعرف ذلك ! وكما لو أنه لم يعش الأمر هو نفسه، يا إله ! كان يتكهن مصيباً بكل مايمكن ان يقال هذا النهار عند الظهر على الغداء. فأحدهم، بالتأكيد، سيطرح الافتراض بأنه جاسوس. ذلك تعرض له. وقد حدث له ذلك أكثر من مائة مرة. ذلك ان الناس يحسّون احتراماً تشويه خشية تجاه الجواسيس.

أخذ يتخطر في الحي من دون هدف. وكانت الساعات تنقضي وهو يعرفها جميعها، فلكل واحدة منها، كلها، مظهره وأصواته وروائحه. إنها ساعة الفرصة في باحة المدرسة... والشمس، علت، وباتت تقطع الشوارع الى نصفين. ومن بعيد، إنما من بعيد فقط، ألقى دو ريتر بنظرة ناحية الباب الأخضر.

إنه المكان الوحيد الخطر بعض الشيء ! بل وحتى ! من رصيف لآخر قبل قليل، هل فطنت أمه الى هويته الحقيقية؟ وهي مع ذلك كانت تأملته من رأسه الى قدميه، مثل جاراتها. والبير أيضاً لم يتعرف الى حقيقة شخصه.

على أية حال، فإنه سيقوم بتجربة جديدة. وفي شارع سان روش، وهو الشارع التجاري، دخل الى متجر صانع الحلويات، الذي كان يتعامل بنصف الجملة وبالمفرق. كان متجراً هاماً، محشواً بالبضائع، بأربع بائعات في مآزر بيضاء وراء حواجز البيع.

- اعطيني حلوى بالكرز.

طوال عشرين عاماً هو لم يأكل منها، وهي حتى لم تخطر له. وأصلاً، هل لمثل هذا النوع من الحلوى وجود في مكان آخر؟ كان رجل رمادي الشعر، مهم، يلبس جيداً، يسير في المتجر كمن يتنزه. وكان ذلك هو السيد موريه، صاحب المحل. وقد تعمد دو ريتر أن يوجه الكلام اليه وأن ينتصب في مواجهته تماماً.

- ربيع جميل، أليس كذلك ؟

- طقس جميل، نعم...

كان دو ريتر بمنتهى الجذل، لأنه إنما الى عمه كان يتكلم، وعمه لم يساوره أي شك به. صحيح أن قدراته الجسدية والذهنية تدهورت بعض الشيء. فقد بدت عيناه محاطتين بهالتين حمراوين، ومايزال يرتدي بناطيل مقلمة ذات قماطين بلون رمادي لؤلؤي يضمان أسفل ساقي البنطال، فيضفي ذلك عليه سيماء رجل جميل آل أمره الى الهرم.

- ليست الأعمال سيئة جداً ؟
- لا بأس. لا بأس.

وغادر المتجر حاملاً حلواه بالكرز، واجتاز الجسر، وذهب ليتناول غداءه خلف دار البلدية في مطعم رخيص الكلفة يرتاده بخاصة أناس قدموا من الريف ولا يترددون في أن يحضروا زادهم معهم.

في السادسة مساء، لم يكن هنالك شيء له بعد في كوة البريد المحفوظ وأخذ يتنزه في الشوارع التي قد يمكنه فيها أن يلتقي ليا. وكان الناس يلتفتون نحوه ويظنه معظمهم ممثلاً. والفتيات الصغيرات يعجبن به. كان يسير بخطى منتظمة، ضابطاً ايقاع مشيته بحركات عصاه ذات المقبض الذهبي، ولم يكن بمقدور احد أن يتطرق اليه الشك بأنه راغب ضمناً في أن يجلس.

إنما لم يكن بمقدوره ان يجلس على مقعد في الشارع. وفي المقاهي يتوجب عليه ان يطلب شراباً، أي أن ينفق مالاً. ولكم كان يعرف ذلك، تلك المدن التي ليس للمرء فيها مرفأ سُجّل فيه ودُفع الرسم، هو مرفأ شرعيته، وحيث يحكم عليه بأن يظل يطوف بلا نهاية في أماكنها العامة.

تبدلت متاجر. وابتلع أحد مجمعات البيع كتلتي أبنية منازل. كانت هنالك أيضاً مرائب سيارات، ومضخات وقود. ولم يتوفر له ان يلتقي ليا. وبالمقابل فانه رأى في مجمّع البيع أحد رفاقه القدامى في المدرسة مرتدياً حلة رسمية، يراقب منصات البيع تحت السماء المكشوفة.

وغير بعيد من ذلك المكان، يلمح المرء مقهى كبيراً، حيث

يمزفون الموسيقى كل يوم من الرابعة حتى الثامنة وحيث يمكن ان تتوفر الفرص لأن يلتقي المرء امرأة جميلة تنشد مغامرة.

واتجه دو ريتر الى المحطة، ودخل مقهى الفنيسيان. كان فريق صغير من زبائن اعتادوا ارتياد هذا المقهى جالسين على مقربة من حاجز المحاسبة. وكان أربعة رجال يلعبون بالورق لعبة البولوت والآخرون يتفرجون.

وأكل دو ريتر شطيرة أول الأمر قريباً جداً منهم، ثم انكبّ مثل جيرانه يتابع ضربات اللعب.

في الساعة السابعة، كان مايزال هناك، مستنداً بمرفقيه على ظهر كرسيه، ينظر الى أوراق اللعب وهي تتعاقب على الغطاء الأحمر. ولم يكن قد عقد أية علاقة معرفة مع أحد بعد. وكان يمكن لثلاثة لاعبين أن يألفوه بيسر، لكن هنالك رابع، لابد أنه اذا حكم المرء من كلامه كان مهندساً معمارياً : رجل بدين هام، أحمر العنق، يحدجه بنظرات موارية ويجيب على مقدماته بتكشيرت بليغة.

كان من الأفضل له أن يغادر. وريثما يصل الى ضربة الزمردة، مايزال أمامه ساعتان كاملتان من الإعداد بعد، وما من شيء يجعله يتوقع بأن الضربة ستنجح.

فنهض، وقال مساء الخير لا على التعيين، ذلك أنه قد يسره أن يعود الى هنا ربما، بعد بضعة أيام. ماكان يجب إهمال أي شيء. وبما أن المركز الرئيسي للبريد لا يغلق الا في السابعة والنصف، فقد استقل الحافلة الكهربائية.

كان الظلام سائداً . والسابلة يمضون مسرعين. وكان على وشك أن يدخل الى دائرة البريد ويدفع الباب الدوار عندما

لمس احد ذراعه. وانتفض باكثر مما كان يريد، حتى انه انتفض كما لو أنه أصابه خوف وغاظه ذلك من ليا.

- ما الذي تفعلينه هنا ؟

- تعال... ساشرح لك...

في الجهة الثانية من الباب كانت تتراصف الكوى، كوة البريد المحفوظ، وكوة الحوالات، ثم تلك الخاصة بالبرقيات.

وجرته ليا الى الرصيف الخالي من الدكاكين، حيث العتمة أكثف.

- ألم تجنّي، لا ؟

- انتظر، ساشرح لك... أتعرف لمن هو أول بيت دللتني عليه ؟..

كان ينظر الى الأرض. وواصلت هي، متعلقة بذراعه وقد أبطأت خطاها :

- إنه لفريدو !.. وهوليس هنا، ولكن زوجته التي تدير البيت، تعرفك...

- يعني ؟...

سألها بصوت فيه نبرة شر.

- تقول هكذا إن فريدو لا يريدها أن تعمل مع الهواة.

- والآخريات ؟

- لابد أنها أخبرتهن بالهاتف. حتى ولم يتركنني أدخل... ماذا تظن؟..

- ماكر هذا السؤال ! ماذا أظن ؟ وهل كنت بحاجة لأن تكلميهن عني أيتها الغبية ؟

- كن يعرفن من دون أن أتكلم عن الأمر.

ومشيا. كان القمر ينعكس على سطح النهر الشاحب. والجسور تشكل عقوداً من الأضواء. وهمست ليا :

- يمكن أن نذهب الى مدينة أخرى.

- دعيني في سلام...

- كنت أقول ذلك لأن...

- لكن اسكتي، اللعنة !

ثم سأل وهو ينظر الى ناحية أخرى

- أما تزال فرنكاتك المائة باقية معك ؟

- ناقص ثلاثون فرنكاً منها للغرفة والغداء...

- أصغي...

على احدى الضفتين، المدينة وأضواؤها. وعلى الأخرى ضاحية سان روش، ورصيفها المظلم، وبيوتها المؤلفة من طبقة واحدة.

- ستتصرفين كما لو أنك لم تكوني تعرفينني... هل تفهمين... ستطلبين أن يرشدوك الى شارع الكومونة... هنالك فندق.. ستأخذين غرفة.

- بأجرة أسبوعية.

- ستأخذين غرفة كما تشائين...

كان يحتدم غيظاً ضد فريدو الذي قال عنه إنه هاو، والذي، من باريس، حيث لابد أن يكون منصرفاً فيها الى لعبة بولوت في شارع دوويه، زحم كل خططه وقلبها رأساً على عقب.

- تدبري أمرك ليعلق بك صاحب المكان... إنه يدعى البير.

ـ هل تعرفه ؟

ـ افعلي ما أقوله لك. وبخاصة أنت. فإنك لا تعرفينني. تنادينني: سيدي، وأناديك : سيدتي.

ـ ألست جائعاً ؟

ـ لا.

ـ أنا جائعة... قطعت المدينة ثلاث مرات على قدمي.

ـ سلفة طيبة عن أربع !

غمغم بذلك. ثم، متوقفاً عند الجسر الثاني.

ـ مفهوم ؟ شارع الكومونة! لا يوجد فيه الا فندق واحد... وصاحبه قليل الفطنة...

ـ أعتقد أنني سأتدبر أمري بالسبعين فرنكاً التي معي.

وهز كتفيه ودار على عقبيه نصف دورة، من دون أن يحييها ومن دون أن ينظر اليها وهي تمضي.

وبلغ الشوارع المنارة وهو مايزال على مزاجه العدائي، وبما انه لم يكن لديه مايعمله فإنه دخل الى دار عرض أفلام لم يكن يعرفها، دار عرض جديدة أخذت مكان تاجر أحذية. وكان قد اشترى زوج أحذية من هذا المتجر، ذات يوم كان فيه في الثالثة عشرة من العمر وهو في المدينة مع أمه.

ـ ٢ ـ

سألها، متوتر الأعصاب وقد نفد صبره:

ـ ما الذي تفكرين فيه ؟

كانت قد انقضت ربع ساعة وهي تراقبه وعليها سيماء من يمعن التفكير بأمره.

ـ أتساءل عما أتيت تبحث عنه هنا.

ولم يجب واستدار ناحية أعماق المقهى. كانا قد عادا الى «الفينيسيان» حيث كانا تناولا قدحاً في أول ليلة. في الفندق، تظاهرا بأن أحدهما لا يعرف الآخر ولم يوجه أي منهما كلاماً للآخر. «إنها راقصة كاباريه»، أفضى البير بذلك الى ريتر في لحظة كانت ليا تعبر الرواق فيها.

ـ آه.

وقد انتظرا الساعة العاشرة في الليل كي يلتقيا في المقهى في مواجهة المحطة. واعتباراً منه، كان يمكن توقع

أنهما سيأتيان اليه في كل مساء، من دون عمل أي شيء غير النظر أمامهما وتبادل بضع عبارات فاترة. بات لهما الآن ركنهما. وأخذ لاعبو البولوت الذين يجالسون صاحب المقهى يعتادون حضورهما في المكان، ولن يمضي يوم أو اثنان وسوف يتبادلون التحية.

- أما يزال عندك أم ؟

كل واحدة من جمل ليا آتية نتيجة شرود داخلي حالم. وكانت قريرة النفس، وذراعاها الورديان يرتاحان على المنضدة، وفراؤها يجعل بشرة قذالها تبدو أكثر نضرة وطراوة.

- نعم. إنها ماتزال حية. بماذا يمكن ان يهمك ذلك ؟

- أهي مقيمة في المدينة ؟ وهل رأيتها ؟

- وبعد ؟

- لاشيء... لا تغضب... أحاول أن أفهم...

وتناول جريدة من الطاولة المجاورة وفردها. في فترات الصمت كان يُسمع خرير هر متمدد على مقعد صغير. عاملة الصندوق تتثاءب، وقاطرة تجري مناورة وراء أبنية المحطة.

- حتى ولا أعرف ما الذي كنت تعمله في كليرمون... وردّ بوتر من دون أن يكمل

- إن سألك أحد...

في تلك اللحظات كان يبدو في أسوأ هيئة له : النظرة جانبية موارية، والفم شكس،كانت له حقاً سيماء أحد أوغاد الشوارع .

ولم يكن قد انقضى غير شهرين على معرفة أحدهما

الاخر في كليرمون - فيران. كانت ليا في أحد بيوت الهوى والتقاها دو ريتر فيه مصادفة، ثم عاد عدة مرات لرؤيتها لأنها أدت اهتماماً به. كانت لديها نزوة أن تسأله عن أمره وأن تنشغل لصحته.

قالت له ذات مساء وهما يثرثران بالقرب من المعزف الآلي:

- يجب ألا تدخن هذا القدر من السكائر. ذلك أنه لم يكن يتوقف عن التدخين وقد اكتست أصابعه من ذلك لوناً عنبرياً، بنياً تقريباً.

- أباقية أنت مدة طويلة في كليرمون ؟

وكلام يجر بعضه بعضاً، من دون أي هوى، ولا فكرة محددة، عرض عليها أن ترحل معه. ومنذ تلك اللحظة وهي تراقبه. فهو لا يقوم بحركة إلا وتسجلها آلياً. كانت تفكر فيه بلا انقطاع، بالسرعة البطيئة، وتحاول ان تكوّن فكرة عنه بشكل تدريجي.

وسأل بغتة وهو يرفع أنفه عن الجريدة:

- هل بدأ صاحب الفندق يغازلك؟

- سيتم ذلك حالما أريد... فهو دائماً في طريقي.. وقبل قليل دخل غرفتي بينما كنت نصف عارية... ماذا تريدني أن أفعل برجل على شاكلته ؟

- أتظنينه لا يملك مالاً ؟ اعلمي ان الفندق كان قائماً من أيام جده. له حظائر للخيل. وكنت ما أزال طفلاً عندما حدثتني أمي عن أسرة تيهون وثروتهم.

وقالت ليا بزفرة :

- ستلاحظ زوجته شيئاً.

- وبعد ؟

وتولد لديها الانطباع بأنه قد باح لها بشيء ما بتلك الكلمة. لكن لا تعرف ماذا بالضبط، لكنها أحسته قاسياً، مرا، شريراً وغضوياً.

- هل ارتكب شيئاً بحقك ؟

- ما الذي يمكن ان يكون ارتكبه بحقي ؟ انه يملك مالاً، هذا كل الأمر ونحن بحاجة لذلك المال. هل فهمت الآن ؟

- لا.

كانت تقول في نفسها : إن فريدو على حق : دو ريتر هاو. فكل تلك القصص لم تكن سليمة. وعبثاً حاولت ان تحاكم الأمر، فقد أخذت تحس قلقاً مبهماً.

وقالت تعاند، متشبثة بفكرتها وهي تفرغ كأس جعتها :

- مع ذلك يظل أنها فكرة غريبة أن تأتي الى هنا للقيام بذلك في مدينتك.

فهي لم تكن تتخلى عن الفكرة : في أي مكان آخر، إلا هنا. فالأمر هوكما لو أنها، هي، تعمل في بيت في فالنسيين حيث ولدت، وترى بالمقابل الناس الذين كانت لعبت في الأزقة معهم يتعاقبون على غرفتها. ومع ذلك فقد هزت كتفيها فالأمر لا يستحق ان يعكر المرء دمه لأجله. ثم وباعتباره استمر يقرأ فقد تمتمت بخجل :

- أعطني الصفحة التي في المنتصف، تريد ؟

خلال النهار، ماعاد يعرف أحدهما الآخر. كان دو ريتر يسمع ليا وهي تروح وتجيء في الغرفة المجاورة، ويحس أن

البيـر كان يحـوم حولها، وعند الظهـر، وهو نـازل، لابد أنه وقع في قلب نـزاع عائلي زوجي اذ سـاد عند دخوله المكتـب صمت يخيم الحرج عليه.

كانت السيدة تيهون امـرأة عادية كيفمـا اتفق، غيـر دميمة، غيـر جمـيلة، بالضبط مـا يمكن أن يتوقع المـرء ان يلتـقيه في هذا الفندق. أمـا البيـر، هو، فقـد اكتنز لفـرط عـدم قيـامـه بأي عمل. فقـد كانت أكثر طاقـة جسدية من أن يظل من دون عـاقبة وخيـمـة يجـر نفسـه في أروقـة الفندق، وهو مـريح قدميـه في خفين لداخل البيت من قماش صوفي.

وسأله :

- هل أنت خارج ؟

- نعم... ذاهب أتناول غدائي في المدينة.

أبداً لم يحدث أن اسـتقبل الفندق نزيلات مـثل ليـا. ذلك بديهي!

كـان الفندق واحـداً من تلك البـيـوت كـامـدة اللون، ذا مظهر صـارم، يخيل للمـرء ان النـاس لا ترتاده، وهـو مـع ذلك تُبنى فـيـه ثروات مـتـينة. إذ لا ينـزل في هـذا الفـندق الا زبائن ألفـهـم وألفـوه، أناس مـعـروفـون منذ سنوات، وبعض منهم كـان قـد رأى البيـر وهو يزحف عندمـا كـان طفلاً، على البساط الأحمر في غرفة المكتب كما كانت تفعل ابنته هذا النهار.

في بيـتــه، لم يتح أبداً لدو ريتـر أن يتنفس هـذا المنـاخ البرجوازي، أو تمتع بمثل هذا الانطباع عن الهدوء والأمن. وهو يتذكر أنه قد لعب طوال بعد الظهر أياماً وأياماً في البـاحة مع

البير، الذي كان عمه قد أهداه طاولة بليارد منسوخة عن الطاولات الحقيقية.

وخرج. واتجه كما درج على ذلك الى ساحة الصنائع، وهي المركز الجغرافي للضاحية.

كانت ليا قد قالت :

. يا لها من فكرة غريبة !

ما شأنها تتدخل فيما لا يعنيها ؟ هاهو الآن بات يشعر تقريباً بقلق، متسائلاً عما أمكنه أن يرجوه ويأمل فيه وكيف سينتهي ذلك.

البيت الثاني على اليمين في شارع «جسر القنطرة» كان ملكاً لخالته. ترى أما يزال زوجها يعيش فيه الآن ؟

كان يمس بذلك إحدى الذكريات الأكثر تشوشاً في طفولته، وهو بعد كل هذه السنوات لا يفكر بالأمر الا ويعتكر مزاجه. كم كان يبلغ من العمر اذ ذاك؟ سبع سنوات ؟ ثمان سنوات؟ مرة كل أسبوع، يوم الثلاثاء، كان يذهب مع أمه لعند هذه الخالة التي تدعى اليز.

ولابدّ أنها كانت حلوة. او على الأقل هذا ماكان عليه انطباعه. فهي في تلك الفترة لم تكن بالنسبة اليه الا مجرد شخص كبير، إنما لدى امعان النظر في الأمر الآن فلابد أنها لم تكن قد تجاوزت السادسة أو السابعة والعشرين.

وكيف كانت الغرفة إلتي يجلسون فيها ؟

الأرض مغطاة بمشمع مطبوعة عليه زهور، وفي مكان المدفأة الجدارية موقد يعمل بالغاز. وهو يتذكر بخاصة البقعة المضيئة والحارة التي كانت تنبثق من مدفأة الغاز. كانتا تشربان

نبيذاً محلى بسكر، من نوع بورتو حتماً، يجري صبه من دورق منتفخ البطن وطويل العنق، محزز حزوزاً محنية دقيقة الصنعة.

الخالة، ماعاد رآها. إنما ماتزال تطن في أذنيه جمل كان الكلام فيها يدور حول جوزيف. وكانت المرأتان، أمه وخالته، تتملكهما عادة الندب:

- شيء رهيب للغاية ان يعيش الانسان مع رجل عديم التربية.

- .. البارحة فقط، قال لي جوزيف...

وكان الزوج شيئاً مثل وكيل بيع معتمد في سوق الهال. ولم يكن دو ريتر قد رآه الا مرة واحدة وفي ظروف مأساوية.

ففي احدى ليالي الشتاء، فجأة، أخذه أبوه وأمه معهما الى بيت الخالة اليز. كان في البيت جمع غفير من الناس، خالات وأزواجهن وأخوال ومجهولون. كانوا يتكلمون بأصوات خفيضة وبغموض سري. يكاد يقول المرء ان جريمة كانت قد ارتكبت. ثم سُمع صراخ حاد صادر عن امرأة، صرخة ارتياع، ورأى خالته اليز محمولة على محفة ينزل ممرضان الدرج بها.

وخلال ذلك، (العم) : زوج الخالة، ذلك الذي لم يكن سبق له ان رآه، وكيل البيع المعتمد في سوق الهال وعديم التربية، كان ينتحب، مستنداً الى الجدار، وحيداً، في ركن من عتمة رواق المدخل.

وطوال سنوات، عندما يمرّان أمام البيت، كانت أمه تردد على مسمعه :

- كان ذلك عمك، زوج الخالة،... لكن يجب عدم الكلام عن الأمر قط. بسببه أصيبت خالتك بالجنون.

لأن ماكان قد حدث، أدركه دو ريتر بعد ذلك بزمن طويل. فخالته اليز، هذه المرأة البالغة ستاً وعشرين سنة والتي كانت حلوة ولابد، أصيبت بجنون الاضطهاد. وفي أيامها الأخيرة عاشت متحصنة في غرفتها حيث وقع على الممرضين أن يأتوا لأخذها.

ومن يومها كف العم عن ان يكون عماً، ولم يعد واحداً من أفراد الأسرة.

أيكون قد مات الآن ؟ أما يزال يسكن هذا البيت الذي له غرفة مزججة، والذي هو أحد أجمل البيوت في الشارع ؟

أما بالنسبة للخالة آنا، التي كانت لها شامة في خدها عليها وبر...

ما كان يمكن لـ : دو ريتر أن يكلم ليا عن هذه الأشياء. فهي كانت ستفهم ! وهي التي كانت قد كررت كلمة فريدو : هاو.

الأمر الذي يبرهن على انها لم تكن فطنة، أو أنها لم تكن لديها أية لباقة، لأن ذلك كان بالضبط الشيء الوحيد الذي يجب الا يقال له. هاو، يعني ذلك انه شخص لا يعمل شيئاً كما الآخرون يعملون، وباختصار، شخص لا ينتمي الى أية فئة.

وكان إنما يقفز من على المقعد، تحت أشجار سنديان الساحة، وهو في الحادية عشرة من عمره، حين كسرت احدى ذراعيه. وكان المقعد، في ذلك اليوم، يفترض انه مركب وان الغارقين يغطسون في الماء قافزين منه.

ومرّ أمام البيت ذي الباب الأخضر. كانت تلك حاجة. وأحس أن الأمر سينتهي به لأن يدخل البيت،ولكن يعرف بعد بأية ذريعة.

أيمكن أن تحزر شخصيته الحقيقية؟ لا. ذلك مستحيل. فهي أربع وعشرون سنة انقضت على رحيله للآن. وفي تلك الفترة لم يكن حتى قد بلغ عشرين عاماً من العمر. بل يكاد ثماني عشرة سنة.

وما كان عليه الا ان ينظر الى الشارع حتى يرجع كل شيء الى ذاكرته. فذلك هو الشارع حيث كانوا يلعبون. بل إن كل الضاحية كانت ساحة ملكهم. لكن كانت هنالك زمرتان تقتسمانها. في جهة الصبية الصغار الذين يدعوهم الآباء الأوباش الصغار، ثم الآخرون، مثل البيرت، الذين يرتدون الملابس الجيدة، مئزرهم المدرسي دائماً نظيف، والذين كانوا يملكون من الدخل بقدر مايريدون ويعودون الى البيت لتناول وقعة العصر الخفيفة.

وكانت أم البيرت تعنفه :

ـ إنك شوهدت مرة أخرى مع الأوباش الصغار.

إنهم أولئك الذين كانوا يقفزون من فوق حواجز الحدائق، ويتسلقون الأشجار، بل وحتى يذهبون للسباحة عراة تماماً في النهر، قريباً من الأرض الخاصة بالمناورات. كان أبوه أمين صندوق في المصرف. وفي الحي يحيونه باحترام، ويأتي الجيران لاستشارته أو ليرجوه بأن يكتب لهم الرسائل الصعبة.

في السادسة عشرة والنصف من عمره، دخل دو ريتر هو أيضاً للعمل في المصرف، وفي الأسبوع الأول، استدعاه المدير الى مكتبه ليعلن له بصرامة وببرودة الجليد،

ـ يسوؤني جداً ان أرى مستخدمي يذهبون ويجيئون وهم بالقبعة الكاسكيت. فاحرص على ذلك أرجوك.

ثم الباقي.. الصديقات الطيبات اللواتي كن ينتظرنه خارجاً.. وأمه التي تندب (كانت تندب بالضبط مثل الخالة إيليز).

- إنك ستجعلني أصاب بالجنون.

الآن، بات يلفت نظره أن تكون أمه استعملت تلك الكلمة. كان قد رآها يوم البارحة وهي على عتبة بيتها وفي يدها سلة الخضار، ويحتفظ من تلك الصورة التي رآها عليها بما يشبه انحرافاً في مزاجه ... فهي، التي كانت في الماضي بمنتهى نحول القامة، قد تنفّخت ... ولاح وجهها مستديراً استدارة قمرية ... وضحكتها لم تعد هي نفسها.

ما الذي كان بوسعها ان تفعله طوال النهار في هذا البيت مع المستأجرة عندها التي كانت «عانساً عجوزاً».

لقد تطوع وهو في السابعة عشرة في الجيش بقصد ان يخلص. وقد وقع عليه من جرائها ان يجابه مشادات مفزعة. ورأى لأول مرة أباه وهو يبكي. وقال الأب:

- أتمنى ان تبقى في الطريق القويم. هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك.

أما أمه فقد جاءتها نوبة عصبية، وتدحرجت على الأرض. وجاء أخوال وأزواج خالات ليثنوه عن الرحيل...

ورغم كل شيء فقد تطوع، وطلب أن تكون خدمته في طونكين بالهند الصينية. ثم...

ومنذئذ، لم يرجع ولا مرة واحدة الى المدينة. وقد كتب رسائل لمدة عام. فمن الذي يمكن له ان يتعرف اليه الآن؟ من الذي يمكنه ان يتذكر غلاماً نحيلاً وطويلاً، كان يترك شعره مرسلاً على طريقة الفنانين وينظر بتحد الى خالاته

وأزواجهن وأخواله ويحتقر كل الضاحية وأهلها تافهي الشأن؟

رجل الشرطة الذي في الجوار، مثلاً، والذي كان ابنه يدرس الطب جارفاً كل المنح: رأس كبير لأبله، فوق جسم دمية تصدر عنها الأصوات.

وبالفعل، فلعله الآن طبيب في الحي ؟

وتناول غداءه في مطعمه الصغير، على الجانب الآخر من الجسر. كان صاحبا المطعم، الرجل وزوجته، يخدمان الزبائن بنفسهما. كان هنالك سمك مقلي من النهر وشعر دو ريتر بالحاجة لأن يعلن :

- في تاهيتي يأكلون السمك نيئاً.

- هل ذهبت الى تاهيتي ؟

- كنت حتى في العام الماضي فقط فيها.

- هل أنت موظف ؟

- كنت كاتب محكمة.

وأذنوا يصغون اليه من الطاولات المجاورة. هناك أيضاً لم يكن يوجد إلا ناس تافهون وقليلو الشأن. وكان بعض منهم مبهورين. وآخرون يتكلفون ابتسامات تدل على عدم التصديق.

ومع ذلك فقد كان مايقوله صحيحاً. فإنه كان مأمور تنفيذ في المحكمة في تاهيتي ! وله سيارة، وهناك، عندما يقيم حفلة، فالحاكم نفسه كان يحضرها.

سوى أن الأمر، وهي الحكاية الأبدية، ان مامن أحد كان بمقدوره أن يفهم ! وهو عندما يروي الحقيقة فإنه يبدو وكأنه يكذب.

وسأله صاحب المطعم :

- أصحيح أن التاهيتيات جميلات بقدر مايُروى ؟

- رائعات... كانت معي دائماً اثنتان أو ثلاث منهن في سيارتي.

كان الذين لا يصدقون يصبحون تلقائياً أكثرية، في حين انه لم يكن يبالغ.

ولئن ذهب الى تاهيتي، فذلك لأنه في باناما كان قد حكم سنتي سجن في قضايا احتيال ونصب. ولاذ بالفرار. أو على الأصح تركوه يرحل، وأغمضوا العين عن ذلك خيراً من اطعامه سنتين.

وفي تاهيتي سئل عما اذا كان مجازاً في الحقوق. وأجاب:

- بديهي !

وتقريباً توسلوا اليه كي يقبل وظيفة مأمور تنفيذ التي لم يجدوا أحداً يشغلها. وقد بقي فيها أكثر من عام. وكانت لديه سيارة. وفي ليلة واحدة كان مايشربونه عنده تصل قيمته الى ألف فرنك...

وراح ينظر الآن الى أولئك الناس الذين يتناولون غداء بسعر ثابت (خمس فرنكات ونصف، بما في ذلك االنبيذ) وهم الذين ينظرون اليه على انه مجنون.

- هل سافرت كثيراً ؟

- عشت في كل بلدان العالم... من تاهيتي عدت الى شانغهاي، ثم جافا وبومباي...

وهؤلاء البلهاء الطيبون، ليس منهم الا تبادل الغمزات المتفاهمة التي تعني :

- يظننا الرجل أغبياء.

البير تيهون، في أعماقه ، ربما كان هو أيضاً لا يحمله جدًا على محمل الجد، رغم ضربة المغلف ذي الأختام الخمسة. وكانت ليا قد قالت :

- هاو...

كان يحتفظ بكل هدوئه ظاهرياً. ويبتسم ابتسامة متعالية. البلداء وشأنهم. سيان أمرهم عنده. ثم كان يخرج ويتبع أرصفة النهر وهو يلوح بخيزرانته ذات المقبض الذهبي راسماً بها دوائر في الهواء.

ولماذا كانت له خيزرانة ذات مقبض ذهبي ؟ ذلك فقط لأنه عندما كان في الخامسة عشرة من العمر، فإن الكونت ريستين، وهو الرجل الأكثر أناقة في المدينة كلها، كان يتنزه كل مساء في الشوارع، حاملاً خيزرانة ذات مقبض ذهبي. وكذلك كان الأمر بالنسبة لمعطفه الأسود، المخصوص فوق الحد عند الخصر. فقد كان ذلك هو الزي الدارج أيامها. وقد حلم دائماً بأن يكون له واحد مثله، وأبواه يرفضان له ذلك.

في الساعة الخامسة دخل مقهى الموسيقى الكبير حيث لمح ليا جالسة الى طاولة قريباً من جوقة الموسيقيين. وقبل أن يقترب منها، أومأت له بإشارة صغيرة فهمها فاستقر على بعد ثلاث طاولات.

على الطاولة المجاورة لليا كان هنالك رجل عجوز تعرّف على شخصيته، فهو أكبر تاجر أدوات مطبخ في المدينة والذي كان يهتم أيضاً بكافة الاحتفالات. وبعد بضع دقائق غير الرجل العجوز مكانه وشرع بحديث مع المرأة الشابة.

وأخذ الاثنان يضحكان. ودو ريتر انصرف الى شرب قهوته المصفاة، وهو ينظر الى جمع الناس باحتقار.



- ماذا بك يا تيريز ؟
- مرّ للتو مرة أخرى. لا أعرف هذا التأثير الذي يحدثه فيّ. أعتقد أنه يخيفني.
- تثيرين ضحكي. أقول لك إنه بكل بساطة شخص يبحث عن غرفة للايجار...

كانتا اثنتين في غرفة طعام صغيرة تستخدم بذات الوقت غرفة استقبال وتحتوي على كل ما يملكه المنزل من ثمين.

وكانت قطع الأثاث كثيرة لدرجة بحيث أنه كان لابد من الحرص والاحتراس ليتمكن المرء من التسلل بينها وعلى المنضدة أغطية صغيرة وصور فوتوغرافية وأواني زهر. وعلى الجدار، رفوف تزدحم عليها تحف لا قيمة لها لم يك بعضها أكثر من ذكرى مشتراة من سوق شعبية أو موسمية. وكان عاكس نور ثقيل، لونه زهر، يصفّي الضوء والآنسة نيكية البدينة عاكفة على الحياكة في هدأة وادعة. وكانت ضخمة ورخوة البدن. وكانت تلك هي المستأجرة الشهيرة إياها التي كلموا دو ريتر عنها.

- ومن تريدينه أن يكون ؟
- لا أدري.

وكانت السيدة شوفاليه ، هي، لا تكف عن الذهاب ، بعجلة وعصبية من غرفة الطعام الى المطبخ ، حيث كان الطعام يطهى على نار هادئة.

- إنه في كل مرة يتوقف أمام الباب... وعند الظهر ، فهمت جيداً أنه كان يحاول أن يرى عبر الستائر...

كان ذلك بيتاً عجيباً، وتلك حياة عجيبة: السيدة شوفالييه، أرملة منذ ثلاث سنوات، والآنسة نيكية التي كانت في الخمسين وعندها عائدات. ومن وقت لآخر كانتا تتخاصمان.

- إنك مفرطة في عصبيتك ! أنت تتعبينني !

ورد من الأرملة :

- واضح تماماً أنك لم تعرفي معنى العيش أنت. أتريدين أن أقول لك ؟ أنت عجوز أنانية! وإن امرأة لم يكن لها زوج ولا أولاد لا يحق لها أن تتكلم...

- اكتفيت مما رأيته من حولي.

- هذا ليس مثل ذاك. ليس نفس الشيء.

وكانت الواحدة منهما تحرد من الأخرى مدة ثلاثة أو أربعة أيام. وفجأة ، كانت إحداهما تشتري قطع حلوى لعقد الصلح.

- أؤكد لك أنني لست مطمئنة البال.

- أتريدين ، غداً عندما يمر، أن أسأله عما يبحث عنه...

- لا.

- إن كان على أحد أن يخاف فالأجدر ان أكون أنا ذلك الشخص فكل سندات استثماري هي في غرفتي. لكن لدي فكرتي... فبدلاً من أن أكلمه هو، سأكلم السيد جامار في أمره.. وهو باعتباره أميناً في المخفر سيتمكن من تزويدنا بالمعلومات... ماذا بك يا تيريز ؟..

- لا شيء ، دعيني...

- أستبكين مرة أخرى ؟

- دعـيني ، قلت لك. إنك لا تعـرفـين أنت ! كـانت تلك حياتها. كانتا تبكيان. وتواسي كل منهما الآخرى، وتتخاصمان ، في بيت صغير مليء بالذكريات، حيث كل تحفه كان لها ماتشير إليه.

- لو أن زوجي مايزال...

- أتتكرمين بالسكوت !

- تمر لحظات أتمنى فيها الموت...

- حسناً اذن، هذا المساء سنذهب الى السينما... بلى أنا الداعية...

وكانتا تذهبان الى السينما. تتأبط الواحدة منهما ذراع الأخرى. وكانتا تشتريان سكاكر تمصانها أثناء العرض. وعند عودتهما ، تكونان أكثر حزناً أيضاً.

وفي نفس الساعة، وفي ذات المساء، كان دو ريتر جالساً وحيداً في ركن من الفينيسيان. كان قد سحب اليه الجريدة التي لا يقرأ فيها. وكان يشرب كأس جعة ويصغي سارحاً الى أحاديث لاعبي البولوت.

في الجهة المقابلة، محطة القطار ، وإطار ساعتها المصفر يشير الى الحادية عشرة والنصف. ماتزال أمامه ساعتان في بطء انقضائهما قبل أن ينام. وليا التي لا تصل. لابد أن تكون تناولت عشاءها مع تاجر الأواني المنزلية، اذ كان دو ريتر يعرف المطعم الذي يجري فيه هذا النوع من الأدوار الدقيقة.

مهندس العمارة البدين الذي كان أظهر ارتيابه في ذلك اليوم الأول انصرف قبل الجميع اذ كانت زوجته تنتظره وحدث

لحظة نوع من التردد الطافي حول الطاولة. وجرى تبادل كلام بصوت منخفض، وأخيراً اقترب صاحب المقهى من دو ريتر.

- أتعرف البولوت ؟

- ولكن طبعاً.

- الا تود أن تؤدي لنا خدمة بأن تلعب رابعاً.

- عن طيب خاطر.

ونهض. وجرى تقديمه للآخرين. ولم يسمع الأسماء جيداً ولكن لم تكن لذلك أية أهمية.

- بكم النقطة ؟

- بنصف سنتيم. وكما ترى، ليس في الأمر أي شيء خطر!

ونظر الى أوراقه. وعند التوزيع الثالث للورق ألفى ليا وقد أخذت مكانها وراءه.

وسألها :

- هل مشت الحال ؟

- مشت.

وبعد قليل من ذلك ، لم يستطع منع نفسه من أن يتمتم:

- في البرازيل، كنا نلعب لعبة رهيبة ، ومع كل واحد ، سكين بمتناول يده.

- وهل عشت في البرازيل ؟

- في كل أمريكا الجنوبية...

كان ذلك صحيحاً. وليا، بغبائها المعهود ، كانت تبتسم بمكر، معتقدة بأنه كان هناك لحماية امرأة أو اثنتين. من نفس نوعها. بينما، وفي الحقيقة ، كان خادماً في مطعم. وقال رجل طيب ، الأرجح أنه متعهد في أعمال البناء :

- إنها بلدان غنية.

- نعم، لاباس... إنما الأزمة تؤخذ مع ذلك في الحسبان. ماهو ورق الضمان ؟ القلب (الكوبًا)؟ أضمن...

وأثناء اللعب، وجد السبيل لأن يفتح حقيبة يد ليا بحجة أن يأخذ منها ولاعتها. وبحركة سريعة، أزاح جانباً الجيب الصغير الذي تضع المال فيه. كان يحوي ثلاثمائة فرنكاً لم تكن فيه هذا الصباح.

ورف بأهدابه علامة الرضا. وفهمت، وهزت كتفيها كأنما لتقول إن ذلك لم يكن عظيماً بالمرة.

أما بالنسبة اليه فقد ربح ست فرنكات وربع، وكان ذلك كافياً لكي يجعله في مزاج حسن.

- غداً سأريكم اللعبة البرازيلية.

في الشارع، سألته، وهي متعلقة بذراعه بحركة باتت آلية بالنسبة اليها حالما تجد نفسها بجانب رجل.

- أهو اسمك، دو ريتر ؟

- ولماذا تريدينه أن يكون اسمي؟ اتخذت لنفسي هذا الاسم عندما عملت في الصحافة في مدينة بوردو.

- أكنت صحفياً ؟

- بل كنت حتى ناشراً.

- واسمك الحقيقي ؟

- اكتفيت بترجمته الى الألمانية... فاسمي الحقيقي هو شوفالييه (فارس)، دو ريتر (فارس بالألمانية).

- هل التقيت امك منذ وصولك الى هنا ؟

- مرتين أو ثلاث.

- ألم تعرفك ؟

- لا.

- وماذا كان تأثير ذلك عليك ؟

وسكت وواصل المشي في المدينة المهجورة.

- سينتهي الأمر بها لأن تفطن.

ورد بشراسة

- ثم وبعد ؟

- بالضبط، ثم وبعد ؟

ولعلهما قطعا مسافة مائة متر وهما صامتان. بكل الأحوال، قطعا الطريق الذي يفصل بين أربعة أعمدة نور، إذ عندما كان دو ريتر صغيراً فإنه كان يستخدم هذا المؤشر ليجري مسافة مائة متر.

- ألك موعد مع الأبله ؟

وسألته ليا :

- أي أبله ؟

- تاجر الأواني المنزلية

- أتعرفه ؟

- ولو ؟

- إنه يتساءل من أين جئت. قلت له إنني أتيت من الخارج... ولكنني لا أعتقد أنه الرجل الذي يمكن ان يهتم بذات المرأة مرتين.

كانا يمشيان جنباً لجنب ، ويتكلمان بقصد الكلام لا أكثر.

- أنت تركيبة.

- لماذا ؟

- لأن !...

ومائة متر أخرى أعقبت. مائتان ، بمحاذاة رصيف النهر هذه المرة.

- على ألا يأتي صديقك البير ويلحق بي في غرفة نومي.

- وهل يضايقك هذا ؟

- لا أحب أن أقع في مشاكل مع نساء... عنده ثلاثة أطفال... وزوجته لطيفة... هذا الصباح، لاحظت أنها كانت قد بكت...

- وبعدها ؟

- أنت شرير.

- أنا ؟

وانفجر ضاحكاً.

- شرير، أنا !... ما الذي يمكن أن تقوليه إذن اذا ما وضعت قنبلة تنسف شارعاً كاملاً في هذا الحي ؟

- اسكت ! أنت تخيفني...

- ورأيك أنني قادر على أن أفعل ذلك ؟ وترددت. واضطر للانحناء كي يسمع الجواب.

- ربما ...

وطابت نفسه لذلك. فشد قامته أكثر، دائماً بنفس هذه الطريقة في الاستناد على خيزرانته في كل خطوة، كما كان قد رأى الكونت قديماً وهو يفعل ذلك.

وكان له هكذا على نفس المنوال عدد من الحركات المرتكسة، تستمد جميعها سبب وجودها من ذكريات الطفولة.

- وهل تكن ضغينة له ؟

ـ لمن ؟

ـ لألبير... أؤكد لك أنه فتى طيب. ونحن منصرفان لتركيب رأسه له بالمقلوب... وأنا على يقين من أنه في هذه الساعة لم ينم بعد، وإنما ينتظر أن يسمعني وقد رجعت...

ـ أفضل...

ـ لماذا ؟ كان سعيداً مع زوجته... ولعلها هي أيضاً غير نائمة كذلك... فهي تدرك لماذا هو على كل تلك العصبية...

«... لو أنني كنت أعرف لبقيت في كليرمون...

ـ لو أنك كنت عرفت ماذا ؟

ـ ماجئت تفعله هنا.

والح هو :

ـ وما الذي أتيت أفعله ؟

ـ هذا، لا أعرف شيئاً عنه بعد. لكن اذا ما سمعتني، نأخذ القطار غداً صباحاً. أعرف صاحبة بيت في مدينة نيس. لن تطلب أكثر من أن تأخذني للعمل عندها. ستكون هادئ البال هناك، وبعيداً عن كل أفكارك...

ـ شكراً جزيلاً...

ـ اذن قل لي على الأقل ماذا في رأسك... وتوقف بأرضه. وأشار لها الى زاوية مظلمة

ـ انظري !

ـ المعنى ؟

ـ ترين هذه البوابة الكبيرة الخاصة بدخول العربات المحملة... هناك ولأول مرة في حياتي لمست يدي امرأة. فتاة صغيرة في عمري، ابنة المرأة التي تعمل عندنا بأجرة يومية...

- وكم كان عمرك ؟

- خمسة عشر عاماً

- وماذا كان من أمرها بعد ذلك ؟

وهز كتفيه :

- لابد أنها تزوجت ورزقت أربعة أو خمسة أطفال. لكن ليس هذا المهم. بل أنه هنا، أنا...

وأوقع بضربة من خيزرانته على حجرة الواجهة.

- تعالي.

- لم تكن على هذا القدر من العصبية في كليرمون... ولماذا رفضت هذا الصباح أن تقول لي مم كنت تعيش هناك؟

- لأن هذا لا يعنيك... ومع ذلك فأنا سأقوله لك... إنك عاملتني على أنني هاو، أليس هذا صحيحاً؟ ذلك هو الأمر تقريباً... كنت أرتاد الأسواق الموسمية القروية.

- الأسواق الموسمية القروية ؟

- نعم بائع متجول ، إذا فضلت ذلك. أرأيت حقيبة سفري الضخمة؟ أتعرفين ما الذي تحتويه ؟

وهمست وهي تضغط على أصابعه ضغطة خاطفة

- لا داع لأن تتوتر أعصابك.

- إنها تحتوي أمواس حلاقة ، وفراشي ذقن وصابون... مع هذه الصابونة أيها السادة أضع فرشاة ذقن... ومع فرشاة الذقن أقدم لكم، فقط على سبيل الدعاية ومجاناً، آلة حلاقة ميكانيكية رائعة مطلية المعدن وغير قابلة للتأكسد ، ومع الكل...

- اسكت

ـ لماذا ؟

ـ صـوتك يرن بنشـاز... إذا تابعت ، سـآخـذ القطار غـداً صباحاً.

وأطاع. وقبل بلوغ الفندق بقليل، وبما أنه كان عليهما أن يفترقا كي يدخلاه الواحد بعد الآخر ، توسل اليها وهو يدفعها نحو عتبة أحد المنازل :

ـ لن ترحلي ، قولي؟... هل تقسمين على ذلك؟...

ـ... إن كنت عاقلاً...

- ٣ -

انتظر حلول الساعة الثامنة من المساء وهو يهيم في ذات الشوارع، وكانت عيناه تزدادان قسوة باضطراد مع انقضاء الوقت. وقد خيم الظلام. وأخذ جرس صالة عرض الأفلام يرن. وكما كان يحدث في الماضي عند مدخل أول دار عرض بقرشين حيث كان الصبية الصغار يصرخون ملء صدورهم فرحاً في الصف الأول...

ولمح ليا في مقهى الموسيقى. ولكنها كانت جالسة وحدها الى إحدى الطاولات وأمامها فنجان قهوة! إنها لم تخطئ بالنسبة لأمر تاجرالأواني المنزلية الذي لم يكن يبحث إلا عن الجديد.

ألبير هو انجرف مثل فتى في السادسة عشرة من العمر، كان يجري طوال النهار على الأدراج، ويصفر ألحان أغان عاطفية وهو يمر أمام باب نزيلته، ويجد كل الذرائع التي يمكن تخيلها كي يقرع على بابها وقد علق زهرة في عروته.

والنتيجة هي أن زوجته كانت حمراء العينين وأنه من وقت لآخر كانت تسمع الهمهمة التي لا تنتهي لنزاع تشهده الابنة الصغيرة من دون أن تفهم.

مال، لاشيء من ذلك! وكما قالت ليا، يستحيل طلب مال من رجل على ذلك القدر من الوله. كان لابد من ترك أوهامه له، لبعض الوقت على الأقل.

وبخاصة أنه لم يكن قد جازف بعد بتقديم عروض محددة.

أما ضربة الزمردة، فقد خابت. ففي الصباح، تعمد دو ريتر تماماً أن يغادر في حوالي الساعة العاشرة. وكان قد دخل الى الفينيسيان الذي يظل خالياً دائماً في مثل تلك الساعة. وكان النادل الجالس الى احدى الطاولات يقرأ جريدته. وكالعادة، فقد تقدم صاحب المقهى ناحية الواجهة، وقد حلق ذقنه لتوه، وجسمه مرتاح في بذلته المريحة وكان دو ريتر قد لاحظ أن له مشية نادل مقهى.

- الا بأس ؟

- لابأس ! وأنت ؟ أتقبل بأن تتناول قدح فاتح شهية معي؟

واستوضح صاحب المقهى ساعة المحطة الجدارية التي لم تكن تشير لأكثر من العاشرة والنصف.

- باكراً بهذا القدر ؟

- هه. لا يكون الوقت باكراً أبداً لتناول مشروب بارد.

ونظر دو ريتر وهو يقول ذلك الى المرآة في مواجهته فتبين أنه لم يكن في مظهره المعتاد. إذ كان يبتسم ابتسامة مغتصبة. وصوته مغتصب النبرة كذلك. كان يريد أن يلوح في هيئة إنسان طيب المزاج جداً.

ـ هل أنت راض عن الأعـمـال ؟.. أهي زوجـتك التي تكون على الصندوق في المساء ؟

واتخذ صاحب المقهى سيماء تتوافق مع الظرف :

ـ المسكينة زوجتي ماتت منذ عام مضى.

وأشار الى بذلته الرمادية وربطة عنقه السوداء. والشـريط الأسود على ردن سترته. كان رجلاً عاطفياً.

ـ إذن، وبما أنه في شغلنا لابد من امرأة، فقد استقدمت ابنة حمي من مدينة أميان.

كل ذلك كـان سيئاً. فخمسون بالمائة من فرص النجاح كانت قد فقدت من البدء. ومع ذلك، فقد باشر دو ريتر خوض العملية، أي معنى ذلك أنه بدأ يلعب بالزمردة الخضراء التي كان محتفظاً بها مايزال في جيبه.

وتابع صاحب المحل وهو ما يزال في موضوعه :

ـ إنها امرأة طيبة.. إنما هذا لا يمنع ان ابنة الحم تظل ابنة حم!

وتوجب على دو ريتر أن يترك الحجرة تسقط ثلاث مرات على رخامة الطاولة كي يتيسر لها أخيراً أن تجتذب الانتباه.

وسأل الرجل أدباً بأكثر مما في سؤاله من فضول :

ـ ماهذا ؟

ـ ألم تذهب أبداً الى الهند ؟ الى كولومبو أو بومباي؟ لو فعلت لكنت رأيت زمرداً في حاله الخام، مثل هذه.

ـ زمردة، أحقاً ؟

وتفحصها، ووضعها على الطاولة من دون أن يعود للاهتمام بها بعد. بينما ظل دو ريتر يتابع بمرح :

- إنهـا بذات الوقت حـرزي الواقي ومـصـرفي... عندمـا يسـافـر الانسـان كثيـراً عبـر العـالم، فـهـو يتـعـرض أحيـاناً لضـربات قاسيـة، مـال لا يصلك في الوقت المناسب، أو نقد لا تستطيع صـرفه بسـعرمناسـب... في تلك الحـالات أعـمـد الى زمردتي...

أخذ صاحب المقهى ينظر الى الشـارع، وعرف دو ريتـر أنه لم يعـد لـه حتى عشـرة بالمائة من الفـرص. لكن الآن وقد بدأ، فلابد أن يمضي الى النهاية.

- كنت أملك اثنتين منهـا. تصـور أنني ذات يوم في القـاهـرة، عـهـدت بإحـداهـا الى بـواب الفندق الذي طلبت اليـه اقـراضي ثلاث أو أربع ليـرات... حـتى ولا خـمـسـمـائة فـرنك! كـان المفـروض أن أسـتـرد الزمـردة في اليوم التـالي. إنمـا في اليوم التالي، كان ذلك يوم عطلته ولم يكن هو هنالك... ومن ناحيتي، فقد اضطرتني برقية لأن أسافر على أول مركب... بحيث أن ذلك الرجل حصل، مقابل قيمة لقمة خبز، على زمردة تساوي عدة آلاف من الفرنكات!..

وفـرقـع صـاحـب المـقـهى بأصـابعه لينبه النادل الى وصـول زبائن كانوا يخرجون من المحطة.

- ... بالمناسبة... هذا يذكرني بـ...

ومن دون إحداث صدمة، نهض الرجل.

- ألن يوجـد مـعك خـمـسـمـائة فـرنك حـتى الغـد أو بـعـده؟.. أنتظر حـوالة برقيـة من شـركـائي.. كانت الزمـردة مـاتزال على رخامة الطاولة.

- يؤسفني... إنها قاعدة مطلقة.. يا إميل ! واقترب النادل.

- قدح فيرموث، ضيافة للسيد، الآخر لي... وذهب يتكئ بمرفقيه على الصندوق في وضعية مألوفة بالنسبة اليه.

الساعة الثامنة والنصف. وتسلق دو ريتر زقاقاً صغيراً مائلاً، وانعطف يميناً الى باحة سيئة الرصف بالحجارة، ثم الى اليمين أيضاً في نوع من زقاق أكثر ضيقاً، تجري فيه مياه قذرة. كان ذلك هو الحي القديم من المدينة، وبيت قديم، كومة بالأحرى من بيوت قديمة، جزيرة صغيرة، بزوايا وثنايا في كل مكان، وأدراج غير منتظرة، ومن هنا وهناك، نوافذ مضاءة وطيوف متحركة وراء الستائر.

وصدرت طقطقة من الدرجات تحت ثقل خطاه. وتوقف لحظة ليستعيد انتظام تنفسه ، ذلك أن نبضه لم يكن طبيعياً تماماً. وفي اللحظة التي هم فيها بأن يقرع باباً ترشح عند أسفله حزمة ضيقة من الضوء، انقبضت راحة يده اليمنى بقوة أكبر على عصاه، إنما لم يكن بمقدوره أن يقول بماذا كان يرتبط تشنج قبضته ذاك.

- من هناك ؟

وسكت، منكباً الى أمام.

- أهذه أنت يا بيرت ؟

وخطى خفيفة على الجانب الآخر من الباب المغلق. ثم انفرج الباب. ولمح قامة امرأة ضئيلة الجسم كلياً، دقيقة القوام تماماً، كانت تتردد، تتراجع، تتقدم، قلقة، كي تعيد إغلاق الباب.

ولكن دو ريتر كان قد دخل والمرأة، التي توجب عليها أن ترفع وجهها نحوه لتنظر اليه، أخذت تراقبه مبحلقة فيه بعينيها، وهتفت أخيراً :

- رونيه.

لقد تعرفت عليه، هي. وسرى ارتعاش في كل جسمها من أثر ذلك. لم تكن تعرف ما الذي عليها أن تفعله. لم تكن تجرؤ بعد على أن تقبله، ولكنها تعجلت بإغلاق الباب، وأخذت القبعة، وعصا زائرها، وراحت تدفع الكراسي دفعاً في تحركها.

- رونيه !... لو أنني فقط كان يمكن أن أتوقع ذلك.

ولم يكن معروفاً إن كانت تضحك أو تبكي، وكانت تعيد تركيز العقيصه الصغيرة في شعرها الرمادي، وتسحب مئزرها الذي ترتديه فوق ثوبها.

- هل رأيت أمك ؟ اجلس... متى وصلت ؟

كل ذلك على أية حال، كما لو أنه لم يكن قد رحل الا منذ بضعة أسابيع. في حين أنه كان مجرد غلام بعد، ذلك الذي رأته في آخر مرة، جندي في السابعة عشرة، جاء يطلب منها بعض النقود كي يسافر...

أما وهو رجل، فإنه يوقع تأثيراً بها.

- اخلع معطفك. فالجو دائماً حرارته زائدة هنا.... هل تتذكر ؟ عندما كنت صغيراً، كنت تذهب دائماً لتفتح النافذة... انتظر! أنا قادمة فوراً.

- لكن يا خالتي ماتيلد...

- اسكت ! دعني أتصرف.

وخطفت حقيبة يدها من على آلة خياطتها، وهرعت نحو الباب. كان الوقع الفاري لخطاها مسموعاً على الدرج، ثم في الباحة، وكان دو ريتر يعرف ما الذي ذهبت تفعله.

ومن مثل أيضاً كان الأمر كذلك عندما كان صغيراً. كانت تجري الى متاجر الحي، وترجع مع عدد كبير من الرزم الصغيرة تفردها على الطاولة.

- كل !... بلى ! هذا سيسرني.

وبالفعل، مرفقاها على الطاولة، كانت تبتسم وهي تراه يلتهم.

من مكانه، سمع رنين جرس باب دكان...

كان الجو حاراً جداً في الغرفة التي كانت تستخدم بنفس الوقت غرفة طعام وغرفة نوم، بل ومطبخاً أيضاً. ولم يتح لـ : دو ريتر في أي مكان آخر أن يرى مدفأة صغيرة بهذه الغرابة، التي لابد أنها تعود الى قرن آخر، وتدفئ كالجحيم. فوقها، قدر طهي أزرق، ربما هو نفسه الذي كان في الماضي.

السرير العالي على اليمين... وآلة الخياطة مع قصاصات أقمشتها...

وبخاصة الرائحة. رائحة باهتة غثة لا يمكن تحديدها. ذات يوم، وكان في الثانية أو الثالثة عشرة، قال أمام الخالة ماتيلد.

- تشيع هنا رائحة عنوسة...

لابدّ أنه قد سمع ذلك في مكان ما. ولم تكن الخالة ماتيلد خالته. كانت صديقة أمه. منذ بلغت السادسة عشرة من العمر عملت بائعة في نفس المخزن، أفضل متجر لوازم خياطة في المدينة، حيث عاشت بين الحرير واجب التطريز والخيوط الملونة.

في ذلك الوقت، كانت لها أم هرمة، وقد توقع دو ريتر

تقريباً أن يلتقيها هي أيضاً من جديد، لأنه، قبل رحيله، لم يكن يشغل نفسه بالأعمار.

لنر... عندما كان في السابعة عشرة، فماتيلد كانت ولابدّ في الأربعين... إذن، تجاوز عمرها الستين الآن. وبات فمها يشبه الذي كان لأمها اذ لم يبق فيه أي سن ولا يكاد يفهمها المرء عندما تتكلم.

وفي كل يوم خميس، كانت المرأة الهرمة تأتي لتتناول عشاءها في شارع الكومونة، وتحضر معها كيس سكاكر، دائماً نفس السكاكر، وبسكويت نوع انكليزي مغطى بتماريج من سكر متعدد الألوان. وكانت أمه تأخذها منه على الفور زاعمة بأنها ملونة بمواد كيميائية.

وعادت ماتيلد، لاهثة، ولكن ضاحكة. كانت تحمل عدداً كبيراً من الربطات الصغيرة ملء ذراعيها.

-لن تحزر أبداً من الذي جملته يبكي عندما أنبأته بأنك هنا.

بحث، من دون اقتناع، بأنه سيحزر. كانت تقوم بتغطية الطاولة بالجمبون والنقانق والجبن والفواكه.

- مارت! مارت سوبيرو! ألا تتذكر ها؟..ابنة تاجر الأحذية.

- طويلة، نحيلة، حولاء ؟

- قليلاً جداً جداً !.. إنها أصبحت صبية جميلة... وهي تكلمني دائماً عنك، واذا هي لم تتزوج للآن فلن أستغرب بأن ذلك لأنها ماتزال عاشقة... كل الآن !... واحك لي.

يحكي ماذا ؟ لم يكن جائعاً. ولكنه كان يعرف أنه لا مناص له من أن يأكل كي يحمل السرور الى قلب ماتيلد.

- ماذا فعلت طوال كل هذا الزمن ؟

- شيء من كل شيء تقريباً، تعرفين... سافرت. وغام وجهها.

- أتصور أنك على علم بالخبر ؟ أبوك المسكين...

- قيل لي إنه مات...

- الأسبوع الماضي كانت مضت ثلاثة أعوام على ذلك. وقد حضرت قداس الذكرى عن روحه.

- ما الذي ترويه أمي ؟

- ألا تدري ؟.. منذ عامين ونحن لا ترى إحدانا الأخرى. منذ أخذت تلك المستأجرة عندها... تلقائياً، استعادت ماتيلد لهجتها النائحة.

- بعد وفاة أبيك، كنت أذهب لأمضي بعض الوقت في بيتكم كل مساء كي لا تكون أمك وحيدة الى ذلك الحد... ثم، وبما أنها كانت تبقيني الى وقت متأخر فقد أخذت أنام هناك ثلاث مرات في الأسبوع... وذات يوم، قدمت لي آنسة عجوزاً وأعلمتني بأنها المستأجرة الجديدة عندها ففهمت جيداً أن حضوري بات زائداً.

وقطعت كلامها

- وأنت ؟

- أنا، لاشيء.

- كم يكون انقضى من الوقت للآن على رحيلك ؟

- حوالي أربع وعشرين سنة.

- يا إلهي ! أحق هذا ؟ لكن اذن، تكون بلغت...

- واحدا وأربعين عاماً...

- وأنا التي أكلمك وكأنني أتوجه الى غلام صغيرا هل تذكر عندما كنت تأتي خفية لتطلب إليّ مالاً ؟ لا يسوءك على الأقل أن أتكلم عن ذلك؟ بالنسبة إلي، يبدو لي أن الأمر هو كما من قبل... فأنا مازلت أذهب الى المتجر... كل قليلاً من الجبن... إنه الجبن الذي كنت تحبه كثيراً... التاجر مات منذ بضع سنوات وامرأته تزوجت ثانية بعده... هل تتذكرها؟ تلك الفتاة التي كان لها خدان يشعر الواحد بالرغبة في أن يعضهما ؟.. ولكنك لا تقول لي شيئاً عن نفسك... لم تكن تترك له الوقت كي يفعل بكل الأحوال.

- رونيه... دعني أسألك شيئاً... هل تعدني بألا تحمل في نفسك على خالتك ماتيلد ؟

واحمر قليلاً، وأومأ وفمه مليء بالطعام بما يعني موافقته.

- هناك، حكوا... باختصار، عمك هنري علم بأنك دخلت السجن، ... أصحيح هذا؟

وقال وهو يحدق بأرض الغرفة بنظرة ثابتة .

- صحيح.

- وماذا فعلت ؟

- في ذلك تعقيد شديد إذا رويته... ومع ذلك فلن تستطيعي فهم الأمر .

- يبدو أنه قيل إن أباك المسكين كان يتوقع ذلك. هو في النهاية ساءت علاقاته مع عمك هنري لأن هذا الأخير زعم بأنه قد أسيئت تربيتك... أتعرف أن عمك أيضاً تزوج ثانية؟

لعل الحر كان هو السبب. أو ربما أيضاً ترك دو ريتر نفسه قصداً تتجرف . بكل الأحوال، فقد تأثر وكان ذلك واضحاً في سطوع نظرته.

ـ الا تريد أن تروي لي ماذا فعلت ؟ معي، الأمر وهو وكأنك في سر الاعتراف، لا يمكن الإفشاء به .

ـ ماعدت أعرف... دعيني...

ونهض. لم يكن بوسعه أن يتحرك في هذه الغرفة شديدة الضيق، شديدة الحر فوق الحد والمزدحمة بكل شيء . ولاحظ أن الاضاءة كانت آتية من مصباح كهربائي، في حين أن الخالة ماتيلد من قبل كانت باقية بعد على استخدام مصباح بترولي ذي ساق زجاجية طويلة ضاربة الى الزرقة.

ـ هل رجعت لتبقى طويلاً ؟

ـ لا أعرف...

ـ ماذا قالت أمك ؟..

ـ لم أذهب لعندها . وهي لا تعرف أنني هنا .

ـ أجئت لعندي أولاً ؟

ولم يصحح لها اعتقادها . اذ لم تكن لذلك فائدة. ولم يعد يعرف ماجزء التمثيل في موقفه وماجزء الصدق فيه، وفكرة أنه كان يجب بأي ثمن أن يطلب مالا منها تراوده .

كانت ماتيلد تقول :

ـ أجريت لها جراحة في العام الماضي. وكنت أذهب كل يوم الى المركز الطبي للسؤال عن أخبارها، لكن لم أكن أريد أن تعرف هي ذلك ... لماذا قبلت بتلك الآنسة العجوز في بيتها؟ وهي ليست حتى من هنا! ... ويبدو أنها من طبقة راقية، وعاشت طويلاً في دير الراهبات...

تتدافع كل هذه الصور، إضافة للصور التي أمام عينيه .

ـ هل أعد لك قدح قهوة ؟

- لا! .. لا ضرورة بالمرة !..

- أما عدت تحب القهوة؟ كنت من قبل تقول إنها هنا أطيب مذاقاً من التي في بيتكم ... احك لي الآن يا رونيه... ألم تتزوج؟

وهز برأسه علامة النفي . وترددت هي، وبحياء:

- لكنك لا تعيش مع خليلة على الأقل ؟

وهز كتفيه. وظلت تلح بنظرتها .

- ولكن لا يا خالتي .

- أين عشت معظم الوقت ؟

- في كل مكان، في باريز، ومرسيليا، ونيو-يورك... ست سنوات في أمريكا الجنوبية، في تاهيتي، وفي استراليا...

- وكنت في مهنة جيدة ؟

وكيف يخبرها بأنه لم تكن له مهنة على الإطلاق ؟

- أحياناً أقوم بهذا العمل، أحياناً بذاك...

- و... لا تنظر إلي ... أجبني فقط... في أي بلد حكموا عليك ؟

- في بنما .

- حتى ولم يبلغ ذلك علمنا! لم ينشر في الجرائد !

- لكن بلى! في ثلاثة أسطر : «سنتا سجن بتهمة الاحتيال، على السيد رونيه شوفالييه، المعروف بـ : دو ريتر من دون مقر إقامة ثابت، والذي ...».

- هل رأيت صورك؟

قالت ذلك لتغير مجرى الحديث، ورفعت عاكس النور الحريري الذي يغطي المصباح فوصل شيء من الإضاءة الى

الجدران المغطاة بورق أصفر تزينه رسوم ازهار . وأمكن لـ : دو ريتر عندئذ أن يرى صوراً له كانت قد ضاعت من ذاكرته، بينها واحدة وهو في زي بحار، في الخامسة أو السادسة، يمسك فيها بطوق، إطار، للعب الأطفال، ناظراً بتوحش الى المصور .

وأبعد قليلاً، صورة التقطها هاو وتمثل كل العائلة في الريف، مع الخالة ماتيلد وفتاة صغيرة تقيم في المزرعة التي تناولوا غداءهم فيها .

ـ هل تتذكر الصغيرة روز؟ كانت أمها مصابة بمرض السل ووضعوها في الريف تجنباً للعدوى.

كانت ماتيلد تتذكر أصغر التفاصيل .

ـ هاهو أبوك المسكين يوم قلدوه وساماً ... كنت أنا من أحضرت الشريط ... تلك المرة أفرطت أنت في تناول الفريز وسقطت مريضاً ...

مازالت تعيش في تلك الفترة بعد؛ كما لو أن الزمن كان قد توقف في تلك المرحلة من حياتها .

ـ مارت تتذكر أيضاً ... وقد احتفظت بصورة لك وأنت في السادسة عشرة وبأخرى وأنت باللباس العكسري أعطيتها أنا اياها ... وقد اعترفت لي ووجههايحمر بأنكما كنتما تتخبأان وراء الباب لتتبادلا القبل... بات أبوها هرماً جداً الآن...

بالنسبة اليه، هذه الكلمات : شاب أو شيخ، لم تكن تعني أي شيء محدد . وكان عليه أن يحسب ويعد . ذلك أنه عندما كان غلاماً صغيراً بعد، فمن وقتها كان يعتبر كباراً في السن كل أولئك الناس الذين يجري الكلام عنهم معه والذين يجب أن يكونوا بلغوا من العمر...

وكان يضيف عشرين عاماً، وحصل بالنسبة لكل أولئك الناس على عمر يتراوح بين الخمسين والخامسة والسبعين.

- ومتى ستذهب لترى أمك ؟

- لا أعرف بعد ... وربما لن أذهب...

- لماذا ؟

- لا أدري .

وحقيقة. لم يكن يتخيل نفسه داخلاً الى البيت في شارع المدرسة. اذ ما الذي يمكن أن يقوله ؟ وما الذي قد تقوله أمه له؟ وما الفائدة ؟

- بالمناسبة خالتي ماتيلد، ... كنت كلمتني قبل قليل عن عمي هنري، زوج خالتي، الذي ترمل ... زوجته لويز، متى ماتت؟

تلك أيضاً كانت من أخوات أمه .

- انقضى على ذلك لا أقل من عشر سنوات . كانت ابنة خالتك قد تزوجت قبل وفاة أمها بقليل.

يا إلهي ! مزيدمن التعقيدات أيضاً : يكاد بصعوبة وجهد أن يجمع ذلك كله في ذهنه .

- إيفون ابنة خالتي ؟

- نعم. تزوجت مهندساً، وسافرت معه الى مصر...

- وما السبب في موت خالتي ؟

وأشاحت الخالة ماتيلد برأسها قليلاً

- قبلها بعامين أو ثلاث، لم تعد كامرأة أخرى ... اذ على إثر وفاة ابنها، انصرفت الى الشراب ...

وسأل فجأة وقد توتر :

- أماتت مجنونة ؟..

- تقريباً ...

إذن، مثل الخالة الأخرى التي كانت، هي أيضاً، شقيقة لأمه! لم يكن قد عرف جدّه. وهو لم ير الا صورة سيئة مأخوذة له، كانت سيماؤه فيها تدل على توحش . لكن ألم يفهم بعدها وهو يكبر باضطراد ويدور الكلام أكثر عن جده أمامه، أن جده كان قد انتحر.

وقال بصوت نصف واضح مقرراً ماتبين له :

- يا للعائلة الغريبة ! ..

وردت الخالة ماتيلد :

- جميع العائلات ولها شجونها ... فأنا التي أراهم يعيشون وهكذا، خذ مثلاً ... لو أخبرتك ...

وندت عنه صرخة :

- لا !..

- ماذا بك ؟

- ليس بي شيء... يجب أن أذهب...

- وإلى أين عليك أن تذهب ؟

- لا أعرف ... حيثما كان ...

إنما لم يزل يجب أيضاً، وبخاصة، أن يطلب مالاً منها ! وكان ذلك هو الأكثر مشقة على النفس . لو أنها لم تكن تعرفت عليه، عند وصوله، لكان يمكن أن يرهبها: أن يمثل دور قاطع الطريق، وأن يرغمها تحت أي تهديد كان على أن تسلمه كل ما تملك.

لكن الآن ؟

- اجلس، ارتح لك قليلاً أيضاً... منذ زمن طويل وأنا أفكر بك!.. أتتذكر عندما كنا نخرج كل يوم أحد الى الريف، ولم تكن ترضى أنت بأن تأكل بيضاً مسلوقاً؟.. من يومها وأنت لم تكن تفعل إلا على هواك .

وسمعت عدة نقرات على الحاجز، فوضعت ماتيلد اصبعاً على شفتيها .

- شـشت !.. إنه عامل تحويل خط السكة الحديدية.. وهو يبدأ عمله من الخامسة صباحاً، ويحتاج لكل صحو رأسه... إنسان آخر ليس له حظ... كان ابنه يعمل في مصرف، أفلس في الشهر الماضي ...

ويجملة واحدة منها، أعادت له لتوها كل مناخ طفولته .

- إنسان آخر ليس له حظ .

إذ بقدر ما يمعن بالعودة الى الوراء بذاكرته، فإن صورة أمه تعود اليه مع هذه أو تلك من الخالات، أو مع صديقة، أو جارة. كن يشربن القهوة، ويأكلن قطع كاتو، ويندبن :

- أتدرين أن زوجته يجب أن تذهب الى مصح للاستشفاء؟

أو أيضاً :

- لقد منعه الطبيب عن العمل... ماالذي سيفعلونه وعلى أذرعهم ثلاثة أطفال ؟..

وكانت العائلة تمر في ذلك، ثم الشارع، ثم الحي. ميتات، وأمراض، وكوارث، أو مصائب صغيرة.

- إنها تزوجت في الأسبوع الماضي وهاهو زوجها تتكسر له ساق وهو ينزل من الحافلة الكهربائية...

كل هذا، في جو مع ذلك رائق الشفافية.. وأخذ ينظر الى

الصور المعلقة على الجدار. وكان يرى ذلك الريف المغمور بالشمس، وأبوه في قبعة من القش؛ بينما أمه في فستان من الحرير نهدي اللون، فستان كان يتذكره جيداً. له زهرة معلقة على صدره ...

واستوضحت ماتيلد بقلق حيال صمته المفاجئ

- ماذا بك ؟

- لاشيء ... لا أعرف ...

- أتحب أن تستقر هنا ؟ سأتخلى لك عن سرير وسأذهب للنوم عند جارة غادرت ابنتها مؤخراً الى باريس ...

- لا.

- بلى، بلى! ستسرني بذلك ... سترتاح أفضل مما في الفندق ... وفي الصباح، حتى ولن تراني، لأنني أذهب دائماً الى المتجر في الثامنة... ليتك تعرف الاعتبار الذي يوليني اياه أصحاب المحل الآن!.. في العام الماضي، قدموا لي اجازة ثماني أيام على شاطئ البحر وهذا العام سيمنحونني رحلة الى مدينة لورد المقدسة ...

ونهض، وقد بلغت أعصابه الحد في تحملها :

- اسمعي يا خالتي ...

كانت يده تربت على الزمردة في جيبه . اذ لم يكن يريد أن يطلب المال هكذا، مقابل لا شيء. ومع ذلك فهو كان يعرف جيداً أنها ستعطيه اياه.

- عهد إلي أحد أصحابي بشيء.. غرض له قيمته... ووضع الزمردة على الطاولة ونظرت العانس اليها بفضول .

- إنها زمردة حقيقية، في حالتها الخام تساوي ثلاثين

أو أربعين ألف فرنك. ولا يعرف صديقي أين يضعها. أتريدين أن تحتفظي بها له ؟

- عندي ؟ واذا جاؤوا وانتزعوها مني ؟

- تعرفين جيداً أنه مامن خطر... سوى أن صديقي الذي هو بحاجة مؤقتاً لمال، سيسره أن يحصل على سلفة صغيرة عليها ...

واضطر لأن يشيح بوجهه فقد كان على حافة أن يبكي .

- ألف فرنك مثلاً ... بضع مئات من الفرنكات ...

ولم تقل ماتيلد شيئاً. وتجنبت أن تنظر اليه، واستدارت نحو آلتها للخياطة التي كانت في العتمة. وكان يعرف أن درجها يستخدم كصندوق . وأخذت منه محفظة مخبأة في علبة ذات أزرار .

- خذ ... هاك ألف فرنك يا رونيه... ستعطيها لصديقك...

ثم دفعت الزمردة نحوه .

- وأعد له هذه أيضاً... فلن أستطيع العيش اذا ما عرفت أن غرضاً بهذه القيمة هو بمنزلي ...

- أؤكد لك ...

- لا! استعدها ... وسيعيد لي فرنكاتي الألف عندما سيتمكن من ذلك... أنا واثقة ...

وبدأ قوله...

- بالمناسبة ...

- ماذا ؟

- عندما رحلت، أعتقد أنني كنت مديناً لك أيضاً بمبلغ صغير هل تتذكرين الرقم ؟

ـ نسيت ... أموقن أنت من أنك لم تكن قد سددتني كل شيء؟

ـ لا. لم أفعل. ولابد أنني كنت تلقيت خمسمائة أو ستمائة فرنك... سأمر غداً أو بعد غد، فقد تركت نقودي في الفندق...

ـ دعك من التفكير بذلك بعد... أحقاً لا تريد أن تنام هنا؟

أكان يمكنه أن يقول لها ان مجرد الفكرة بأن ينام في سرير العانس هذا كانت تصيبه بالغثيان؟ ويتذكر انه كان قد رأى فيه، وبالضبط في نفس الموضع، جسد والدة ماتيلد، مقروصة الأنف، خداها مصفران، وبين يديها المضمومتين مسبحة وعرق من نبات سياج في إناء ماء مقدس.

ـ آن الأوان لأن اذهب ... طابت ليلتك ... وشكراً .

ـ أتحب أن تفعل شيئاً يسرني ؟ .. غداً، اذهب لرؤية مارت... بلى، بلى ! ولن تترتب على ذلك أية نتيجة... ماعليك إلا أن تدخل الى المتجر... ولا تتظاهر بشيء ... سنرى ما اذا كانت ستعرفك ...

وعلى صحن الدرج عند الباب حيث أوصلته، اضافت بصوت أخفض

ـ أبوها لن يكون أسعد منه اذا تزوجت هي! فما من أحد عنده ليأخذ عنه تجارته بعده.. فابنهم الوحيد قتل في الحرب..

وقبل بشرود الخد الذي مد نفسه نحوه. ونالته لفحة من قبلات أيام زمان التي كان يتجنبها بقدر ما يستطيع. وهمست، منكبة على حاجز الدرج.

- إلى اللقاء... عد غداً مساء... إذا رأيت أمك لا تقل لها...

وظل الباب مفتوحاً حتى وصل الى أسفل. واجتاز الأروقة والباحات، وبلغ الشارع المظلم .

- ابنهما الوحيد قتل في الحرب .

أليس هنالك في العائلات حقاً إلا أموات، ومرضى، وتعساء، وسكارى مجانين؟

ووثب الى درجة الصعود، الى الحافلة الكهربائية التي حملته الى الشوارع الأفضل انارة في مركز المدينة.

وبعد بضع لحظات وصل الى مواجهة المقهى حيث لمح ليا، في نفس مكانها ماتزال، برفقة شاب .

ودفع الباب الدوار، وعصاه تحت إبطه، واقترب من الثنائي وسأل ليا من دون أن ينظر الى رفيقها :

- هل انتظرتني طويلاً ؟

كان يعرف ماعليه الأمر. فقد فعل ذلك طويلاً، هو أيضاً : شباب صغار لا يملكون مصروف جيب، طلاب يحاولون أن يفوزوا بتعطف وحظوة امرأة يتولى عشيق الإنفاق على حياتها.

قالت :

- آتية .

ونهض الشاب بحركات خائبة، وانحنى. وعلى مسافة غير بعيدة كان طلاب آخرون يلعبون الشطرنج وسألت ليا حالما بلغا الشارع:

- إلى أين تمضي ؟ فمظهر وجهك غير طبيعي .

- لا، أبدا ! تعالي.

وجرها معه باتجاه المحطة .

ـ ما الذي كان يقترحه عليك ؟
ـ لاشيء محدد. فهؤلاء الغلمان لا يتجرؤون ...
ـ من الذي دفع ثمن المشروب ؟
ـ هو .
وسخر بهزء . وبلغا الفينيسيان، وأخذ دو ريتر مكانه قصداً بجانب لاعبي البولوت، الذين كان صاحب المحل واحداً منهم .
وصاح :
ـ نصفي زجاجة .
وبصوت أعلى أيضاً :
ـ أمعك أن تكمل لي على ورقة الف فرنك ؟
وحقق له ذلك أفضل مما ظن، ذلك لأنه من أجل أوراق نقد من فئة كبيرة كان على صاحب المحل أن يزعج نفسه وأن يذهب لفتح الدرج بالمفتاح الذي كان في جيبه.
وبلغ انبهار ليا الإشباع. ولم يكن دو ريتر راغباً في أن يتأخر . وفي الشارع سألت مرة أخرى :
ـ هل بعت الزمردة ؟
فقد آل الأمر بها لأن تصدق هي أيضاً حكاية الزمردة.
ـ انظري ...
وأراها الحجرة الخضراء . كان معه ألف فرنك في جيبه. ولم يبع الزمردة .
ـ ماذا فعلت ؟
كانت تنظر إليه بإعجاب ولم يصحح لها مايدور في ذهنها. بل اقتصر على أن يغمغم :
ـ إه، إه.. من يمكن أن يدري ؟.. هذا لا يمنع أن الأوان

اقترب لتتدبري أمرك مع صديقنا البير. ولئن بقيت على تركه ينضج فسيبدأ بالتعفن ...

وأخذت هي بذراعه، كما تفعل دائماً. كانا يمشيان بصمت. وبعد ربع ساعة، أبدت وهما يقطعان الجسر ما تلاحظه :

ـ لكم أنت متوتر !.. ما الذي تفعله يا رونيه؟. على ألا يكون مفرطاً في خطورته على الأقل ؟..

وبدلاً من أن يجيب، هز كتفيه وكانت هي التي سرت الرعدة، فيما بعد، فيها عند استسلامها للنوم .

ـ ٤ ـ

بات يمكن لليا الآن أن تسكن ! فمنذ ثمانية أيام وهي تعيد عليه، بلهجة تثير التشنج لديه بتظاهرها بأنها لا تبغي أن تلحّ.

«ألا تعتقد بأننا نفعل خيراً بأن نرحل الى مكان آخر؟».

ثم عبارات قصيرة في الهواء :

«أنا فعلاً لا أحب هذه المدينة... لو أنني كنت متطيرة، لغادرتها حالاً».

أو أيضاً :

«لفرط ما تؤرق به نفسك، سينتهي الأمر بك الى ارتكاب حماقات».

والحال أنه، في بضع دقائق، أتى على كسب قدر من المال أكثر مما ربحت طوال ثلاثة أشهر! وقد جاءه ذلك بدرجة من الغباء بحيث أنه عاد الى التفكير بالأمر وهو يتجه نحو المدينة.

في الساعة السادسة كان قد دخل الى مكتب الفندق كي يعلق فيه مفتاحه في اللوحة كما كان يفعل في كل مرة يخرج فيها. وكان الضوء في هذه الغرفة ضارباً الى الحمرة، بسبب السجاد، والستائر، وعاكس النور. وتحت المصباح، كان الولدان الأكبران، بنت وصبي، يعملان في وظائفهما، بينما الصغرى تدور حول الطاولة في دوائر، دافعة أمامها عربة دمية.

وألقى التحية من دون أن يرى في المكتب السيدة تيهون :

ـ مساء الخير.

وكان يجتاز الرواق عندما برزت اليه من باب آخر، في يدها منديل، وأنفها أحمر .

ـ سيد دو ريتر ... هل تتكرم بمنحي دقيقة صغيرة؟..

ـ عن طيب خاطر ...

ودخل معها الى غرفة المكتب، ولكنها أومأت له ناحية الأطفال، وفتحت باباً آخر.

ـ تعال من هنا من فضلك ... ألتمس المعذرة...

وكانت خادمة شابة تقوم بكي الملاءات في المطبخ الذي اجتازته كليمانس تيهون أيضاً وهي تقول :

ـ سأريك جهاز التدفئة...

كان جهاز التدفئة قائماً، وراء المكان المخصص لأعمال الغسيل، في غرفة عارية، وفجأة أمسكت السيدة تيهون بيدي دو ريتر وهتفت بصوت لم يعد فيه أي أثر لاحترام الذات الإنساني :

ـ يجب أن تعطيني نصيحة ... يجب أن تساعدني... أنت الذي قمت بكل الأسفار، لابد وأنك قد خبرت الحياة ... إنك

رأيت أولادي ... مـاذا لو قلت لك إنهم باتوا يرتابون بوجـود شيء...

بدت من دون أي هاجس تأنق، حتى ولم تكبد نفسها عناء مسح عينيها.

- لقد جن بهذه المرأة... اليوم بعد الظهر أيضاً، أنا موقنة من أنه ذهب ليلحق بها. وهو حتى لا يكاد يخفي الأمر... لكأنه غـائب الوعي . بعد الغداء، صـعد الى فـوق، وأخـذ بتـرتيب هندامـه وهو يغني، وكـأنه طالب مـرحلة إعـدادية... واشـتـرى زجاجة عطر وأخذ يحلق ذقنه كل يوم.

ما كان مخيماً كالقبة على النفس، كان الإطار : هذا النوع من الأقـبيـة مـضـاء إضاءة فـجة، وجـهاز التدفئة بجـانبـهـما، والصـوت المنتظم لضـربات المكواة بيـد الخـادمـة الذي كـان يلفهما...

وداخل ذلك المكان، دو ريتر في معطفه محزوم الخصر، قبعته على رأسه، وفي يده عصاه...

وكان صحيحاً بالضبط أن البير قد خرج ليلحق بليا. وكان هو يعرف ذلك خيراً من أي آخر. وأول خروج لهما حدث ليلة البارحة. وقد التقيا في مقابلة المحطة وذهبا الى السينما، وبعد ذلك دخلا الى فندق صغير يعرفه كل ثنائي غير نظامي في المدينة. وكانا عائدين الى هناك اليوم، وبالضبط كان دو ريتر ذاهباً لينتظر ليا عند خروجها .

وراحت زوجة البير تئن :

- أنت لا تعرفه. فالبير يفعل المرء به مايشاء . إنه مايزال مثل طفل. وهو عندما يقرصه شيء، قادر على الإتيان بأي

تصرف... ذات مرة، رحل الى باريس مع مغنية عابرة، وإن أبي هو الذي اضطر لأن يذهب كي يعود به... علماً بأننا كنا رزقنا منذ فترة وجيزة بطفلنا الأول ...

خلال استماعه الى ظلاماتها، عمد دو ريتر قصداً الى التفكير بذلك الغلام الذي كان يقضي معه في الباحة أوقات بعد الظهر في أيام شهر آب، وهما يلعبان البليار مقلدين سيماء الكبار.

- أي نوع من النساء هي باعتقادك أنت ؟ إنها تروم الحصول على ماله، أليس كذلك ؟ وبما أنني أعرف البير فستحصل منه على كل ماتريد. ولذلك فأنا أطلب نصيحة منك.

وعندئذ فقط حدث أن لمعت فكرة في رأسه. وقال :

- قد يكون في مقدوري ربما أن أكلمهما. إنها مغامرة بديهي، وأخشى أن تكون شرهة...

- ماذا تقصد ؟

- أنها مادامت في وضع يمكنها من سحب النقود من زوجك، فهي ستطالب بمال مقابل التخلي عنه .

- وإذا ما أعطيتها؟..

- أعندك مال شخصي لك ؟

- سأطلب من أبي... إنه غني بقدر كاف ... ومطعم ديمولان للوجبات السريعة وتقديم الجعة هو ملكه .

بات الأمر خيالياً يذهب بالرشد .

ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يهتف :

- إذن، عندك أخ .

ـ فرنان، نعم. وقد مات من التهاب قصبات لم يشأ أن يعالجه .

ميت آخر ! كان دو ريتر في المدرسة مع فيرنان أيضاً، ابن صاحب مطعم الوجبات السريعة، وكان يجهل أن له أختاً، للسبب البسيط التالي هو أنها كانت أصغر بأربع أو خمس سنوات، يعني أنها لم تكن الا فتاة صغيرة كلياً !

ـ يجب أن أكون قادراً على أن أعرض عليها عشرة آلاف فرنك على الأقل.

ـ سأحصل عليها غداً ... إذا رضيت بأن ترحل ...

وأخذت تشرق بأنفها، وهي تجتاز مجدداً الغرف، والمطبخ، والمكتب حيث كان الأطفال يتساءلون عما ذهبت أمهم تفعله في غرفة التدفئة مع نزيل الفندق. عشرة آلاف فرنك! انطلت اللعبة! وأخذ يقول في نفسه وهو يمشي في الشوارع إنه كان بمقدوره أن يطلب حتى عشرين ألفاً!... وخلال هذا الوقت كان ذلك المغفل البير مع ليا في غرفة !

أكان سعيداً فقط ؟ ذلك هو السؤال الذي ما برح دو ريتر يعود دائماً اليه، وعندئذ كان وجهه يأخذ تعبيراً باطنياً لا يسبر . وعندما كان صباحاً يرى ألبير في رواق مدخل فندقه يصفر بانتظار أن يلمح ليا، كان يشعر بالحسد نحوه.

لقد كان بديناً ساذجاً، ليكن ! إنما كانت له حياته العذبة، المنتظمة، في ركنه. كان يلعب البليار دائماً وهو أبرع من لعبه في كل الحي. والجميع كانوا يحبونه . وله ثلاثة أطفال .

لابد أنه كان سعيداً! إنما صحيح أيضاً ان البير قد تراوده نفس الفكرة ربما، عندما يرى دو ريتر وهو يمر به. لا!

فصاحب الفندق لم تكن تقلقه هذه الأمور ولذلك كان سعيداً!.

وهاهو واحد آخر هناك !... فقد لمح دو ريتر وهو يجتاز ساحة الصنائع دكان لحام منارة، الطاولات نظيفة، وذبائح العجول قطعها معلقة، وفتى ضخم، معقود الذراعين فوق صدره، في الأربعين من العمر، خشن شعر الجسم، وقصير الشاربين .

كان اسمه غودار. وكانا قد لعبا معاً. إنما الجميع كانوا يسخرون من غودار لأنه ابن لحام .

واستمر دو ريتر يمشي . لقدكسب لتوه عشرة آلاف فرنك. وماذا بعد ذلك؟ ستستغل ليا الأمر لتقول له :

«أهي فرصة لنرحل؟..» .

لكنه لم يكن يشعر في نفسه بأية رغبة قط في أن يرحل . وقد حل ذلك على دو ريتر أشبه مايكون بتعب. عدد المرات التي «رحلها» في حياته كان كافياً. بل لم يفعل الا أن يرحل. وهو الآن، مع احتدام غيظه، كان يشعر بالرغبة لأن يهيم في هذه الشوارع، يتعرف الى جدران، الى طيوف قامات أشخاص،والى لافتات فوق محلات البيع، وحتى أن يسمع من يقول :

- مات بسبب التهاب قصبات ..

كم من النفايات ! وحالات الطلاق ! وزيجات من جديد! وأشخاص غيروا مهنهم، بلا سبب وجيه. وبعض آخرون، بالمقابل، وكأنما ضربا للمثل، اتبعوا بالضبط الخط الذي كان عليهم ان يلزموه : مثل البير في فندقه، وغودار في محله لبيع اللحوم ...

لولا أن البير هرب مرة قبل الآن مع مغنية الى باريس، وغودار ربما كان يضرب زوجته ؟..

وأمه هو، شكلت عند خصرها الآنسة العجوز النبيلة! كان يرى الضوء من خلال النافذة التي تعلو الباب. وتكهن من ذلك انهما كلتيهما في غرفة الطعام .

الا يمكن ان تكون الخالة ماتيلد، ورغم كلامها قد جاءت وكشفت أمر حضوره. فهو لم يرجع لعندها . ولم يكن في ذلك أية لباقة، بالتأكيد . ولابد أنها تتساءل عما حدث له بعد .

لكن ذلك فوق طاقته. وهو لم يحتج الى مال . فالألف فرنك كانت كافية له بالنسبة للثمانية أيام، ولم يقو على أن يحزم أمره كي يدخل من جديد الى غرفة الروائح الفثة.

كانت ليا قالت، الساعة السابعة... وهي الآن السادسة والنصف، وتخيلهما منصرفين كليهما الى ترتيب هندامهما... وبلغ زاوية الشارع... كان سيء المزاج، بلا سبب، على الرغم من العشرة آلاف فرنك... عشرة آلاف فرنك بضربة واحدة، ومن دون جهد، فقط لأنه أذكى من الآخرين، إجمالاً، ومع ذلك، إنه في الثانية والأربعين، وهو لا يملك درهماً!

وأخذ وقد أسند ظهره الى إحدى واجهات المرض، ينظر الى المارة نظرة احتقار. كان ذلك هو موعد الانصراف من المكاتب، وإغلاق المتاجر، وهؤلاء الناس الذين ينجذبون الى ذات الاتجاه يذكرونه بقطيع غنم.

تلك هي الحقيقة : لقد أبى دائماً أن يكون واحداً من الأغنام! كان يرى في نفسه الند لأي كان ...

أو بالأحرى ... وصعدت مجدداً الى ذهنه ذكرى صغيرة

زرية، ذلك أنه كان يسرح النظر في الشارع الرئيسي وانتبه لتوه لواجهة متجر لبيع القفازات. وقد وقع الحدث هناك. الساعة كانت السادسة صباحاً. وهو جندي. كان في الثامنة عشرة، بوجه ممتلئ عفي، مستدير. كان في طلعة مع رقيبه، وهو رجل في حوالي الثلاثين جدد تطوعه. وكانا قد طافا على كل المقاهي الصغيرة وشربا فيها. وذلك ليس أمراً قليلاً بالنسبة لجندي مستجد، أن يدفع ثمن الشراب وأن يسكر مع رقيبه !

كانا يتبعان في سيرهما الرصيف وأمامهما يمشي رجل وامرأة. الرجل يضع قبعة مستديرة محدبة على الرأس والمرأة قبعة نهدية اللون مزينة بزهرة مرغريت. أقحوان.

وعندئذ، ومن دون معرفة السبب، انطلقا يضحكان، هو والرقيب، وترنم دو ريتر بأغنية :

«اعطيني قلبك يا مرغريت...».

ثم، تصرفات هازلة أخرى تستثير كلها السخرية بنفس القدر .

وبالضبط، وفي مقابلة متجر القفازات، استدار الرجل. كان ذا مظهر لا يؤبه له، أميل بالأحرى الى الضآلة، في حين كان صف الضابط بضخامة وحش .

المشهد، ترتب عليه أن تاريخه بات علامة فارقة في حياة دو ريتر. فالرجل، بخطوتين، اقترب من الرقيب، وببساطة، بيسر وطلاقة في الحركة كما في الحلم، كال له لكمة على الفك. ثم، وبينما أخذ الآخر يترنح، التفت ناحية الجندي الفتى، وقاسه بنظرة خاطفة، واقتصر على أن قرص له أذنه وهو يزجره :

ـ أيها الزقاقي الصغير !

هزة ترجّ، ولا شيء أكثر ! وبعد ذلك، وبكل هدوء قدم ذراعه للمرأة وتابعا طريقهما من دون أن يسرعا الخطى، بينما أخذ الرقيب يغمغم بشتائم .

لقد عاش دو ريتر مغامرات عديدة. ولكن هذه، أكثر من أية واحدة أخرى، كانت وكأنها محفورة في لحمه، وفي لبه. كانت أذناه تحمران لمجرد مرورها في باله. إنه لم يلتق ذلك الرجل ثانية أبداً. ولم يكن يعرف من كان ذلك الرجل . ولكن عندما ينفرد بنفسه، كان يتخيل نفسه يمشي، هو أيضاً، لملاقاة خصمين، من دون أية خلجة، ويؤدبهما بتلقينهما درساً على نفس القدر من الجدارة. سوى أنه، لم يستطع ذلك يوماً !

رأى البير يغادر الفندق أولاً، خافضاً رأسه . كان ذلك تقليداً. فالأزواج كانوا دائماً يخرجون كل بمفرده من ذلك الفندق الذي تعرف كل المدينة الغرض منه. وألبير، الذي طاش صوابه لتأخره ذاك، قفز الى حافلة كهربائية، ورفع أخيراً رأسه.

وسار دو ريترحتى الباب ولمح ليا التي كانت تقبض عمولتها على سعر الغرفة. وفي اللحظة التالية، كانت متعلقة بذراعه.

وصرح لها :

ـ ربحت عشرة آلاف فرنك . وانت؟

ـ أعطاني خاتماً كان على زعمه ملكاً لأمه . لكن لن يدهشني ان يكون الخاتم لزوجته .

- أنا مكلف من قبلها لأعرض عليك عشرة آلاف فرنك اذا وافقت على ان تبتعدي ...

- اذن، نحن راحلان ؟

- لا.

- لكن أنا ؟

- تغيرين حياً، بكل بساطة ... المدينة واسعة بما فيه الكفاية ...

- ما عدت أفهمك ...

- لم تفهمي في حياتك شيئاً !

- شكراً ! ماذا نفعل ؟

- سنأكل لقمة معاً، ثم أذهب للقاء أصدقائي. فمنذ ثلاثة أيام، أخذ فعلاً يتردد على وسط جديد. وقد جاءته الفكرة ذات يوم بعد الظهر، بينما كان، في مقهى، شأنه دائماً، يقرأ جريدة محلية، المونيتور، التي كانوا يتلقونها من يوم كان عند أهله. وورد فيها كلام عن ثورة قامت مؤخراً في الإكواتور وأظهر التعليق المنشور على برقية وكالة هافاس الواردة أن محرري المونيتور لا يملكون أفكاراً واضحة جداً عن أمريكا الجنوبية.

وبعد ساعة، كان في ردهة انتظار قسم التحرير.

- أعلن عن هوغ دو ريتر ...

لماذا غير اسمه الأول ؟ لا شيء ! لأنه بدا له بغتة أن هوغ يلائم أكثر بالنسبة لتوقيع في جريدة.

واستقبله رئيس تحرير قصير لاح هو نفسه وكأنه صبي المكتب في مكتبه شخصياً والذي يتولى تصحيح مسودات المطبوع. وبعد خمس دقائق فقط، داخ الرجل. فقد حدثه دو

ريتر، على انهم أصدقاء شخصيون، عن وزيرين ثلاثة، عن سفراء، ومدراء جرائد يومية كبيرة في باريس ...

- عندما كنت أمين سر التحرير في : الجيروند الصفرى...

- إذن أنت عرفت صديقي ماشير ؟

- جول ؟ طبعاً عرفته. وكم من مأدبة اشتركنا فيها معاً!..

وعندما خرج دو ريتر كان قد وعد الجريدة بثلاثة مقالات ستظهر تحت العنوان العام :

«فرنسي في جمهورية الإيكواتور».

كتب اثنين منهما في نفس اليوم، والثالث في اليوم التالي . وفي المساء عقد أواصر المعرفة مع شباب صغار في التحرير ودعاهم لتناول نصف في مشرب الجمة المواجه .

- كنت على صلة وثيقة مع الرئيس الإكواتوري وأذكر أنه كان يقول لي :

«يا صغيري هوغ، يجب أن تدع نفسك تمين جنرالاً ...».

- لماذا لا تريد الرحيل ؟

- أيضاً ؟

ردَّ معترضاً وهو يرفع عينيه عن صحنه .

كانا في مطعم صغير حيث اعتادا أن يتناولا العشاء. هنا أيضاً كانت لهما طاولتهما، بجانب النافذة. فقد كان دو ريتر لا تطيق نفسه أن يجلس في أي مكان كان، ووسط أي جمع من الناس .

- أتريد أن أقول لك شيئاً يا رونيه ؟

- لست حريصاً بشكل خاص على ذلك .

- ومع ذلك سأقول ذلك . الحقيقة هي أنك لا تعرف ماذا تريد !

- كلام ذكي ! قد يمكن ادعاء نفس الشيء بالنسبة لكل الجنس البشري...

- لا! أنا أفهم نفسي... أنت تعرف ماتريد : وتحصل عليه . وعندئذ، وفوراً تريد شيئاً آخر ...

وتهكم وهو يطلب خبزاً مرة أخرى :

- يا له من تحليل نفسي !

- اعرف انني أعبر بشكل سيء عما أريد. والأمر أكثر تعقيداً من ذلك. لنضرب مثلاً : أنت ستقبض عشرة آلاف فرنك؛ بهذا المبلغ قد يمكننا أن نذهب لنجرب حظنا في مكان ما في الشاطئ اللازوردي مثلاً. ولو كنت أرتدي بعض ملابس انيقة، فأرجو أن تصدقني بأن فرنكاتك العشرة آلاف ستتجب صفاراً . ولكن لا! فأنت على الفور تشعر بالحاجة لأن ترتكب حماقة ...

- أية حماقة ؟

- أن تبقى . وتعرف أنت ذلك جيداً بقدر ما أعرفه ! هل ذهبت فقط لرؤية أمك ؟

- تطرحين علي كل يوم نفس السؤال !

- ومع ذلك فسوف تذهب ! لن تستطيع منع نفسك أن تفعل. وستتسبب لها على الأرجح بشقاء يفوق كثيراً كل ماعانته في السابق ...

- وبعد ذلك ؟..

- وبعد ذلك تحس نفسك تعيساً من جديد، مستعداً لفعل أي شيء.

- أتظنين نفسك ذكية ؟

- لا. ولكنني بدأت أعرفك... وأحياناً أتساءل عما اذا لم تكن أكثر بورجوازية منهم ...

- ممن ؟..

- من البير، مثلاً!.. من كل أصدقائك، الذين تتكلم عنهم...

- هل تتكرمين بأن تغلقي فمك، أتريدين؟ بالتأكيد أنها فطنت لبعض الأمور ! لكن ألم تكن مهنتها قائمة على رؤية الرجال في اللحظة التي لا يفكرون فيها بالخداع ؟

- مثل فكرتك هذه بأن تعود صحافياً ...

- وهل لك خبرة في هذا الأمر ؟

- مقالاتك هي من دون شك جيدة جداً. إنما لا يمنع من أن ذلك خطر عليك...

- بلهاء .

حكاية قديمة أخرى أيضاً كانت تعود اليه وتجعله يمقت تقريباً ليا لأنها كانت على حق. انقضى على ذلك عشر سنوات. كان في مونتي ـ كارلو. ولفرط ما أبدى من تجرؤ فقد توصل لأن يتعين نائباً لمدير الاستقبال في فندق كبير .

وكان يرتدي سترة المواسم، واللؤلؤة على ربطة العنق... وكل شيء يسير على مايرام... كان الملك على عالم صغير من الخدم ...

وكانت هنالك بين النزلاء امرأة انكليزية، مجنونة بعض الشيء، في حوالي الأربعين . وكان يتردد أن قرابة مبهمة تربطها بالبلاط الانكليزي. كان زوجها نقيباً في الجيش يقضي أيامه في لعب الغولف والبولو .

حسناً! لقد أحس حاجة لأن يدخل لصميم حياة هذه المرأة. فروى لها انه من عائلة بلجيكية نبيلة وأنه قد جرى نفيه بنتيجة مكائد حيكت ضده في البلاط. وقد أعطى تفاصيل، وسمى أسماء. ولم يكن يجري شيء بينهما، ولكن المرأة كانت تجعله يصعد الى شقتها وتشترك معه في أحاديث تدوم ساعتين .

... إلى أن حل الصباح الذي استدعته الإدارة فيه،

- أمامك أربع وعشرون ساعة لمغادرة أمارة موناكو ...

قيل الكلام باحتقار. من دون أية ايضاحات!

- يمكنك ان تمر الآن على الصندوق ليسددوا حسابك لك.

- شكراً لست بحاجة الى هذا المال .

علماً بأنه لم يكن مجنوناً ! آه فقط ! لو أنه استطاع أن يوجه للمدير لكمة مباشرة على فكه مثل ...

- هل ستقبل العشرة آلاف فرنك يا رونيه ؟

- لن أقبلها فقط. بل سأطالب من دون شك بعشرين ألفاً . ستتظاهرين بالرحيل مقابل عشرة آلاف . وستبقين في المدينة. سأوحي بأن البير مايزال يقابلك. والباقي يخصني أنا.

- لديك تركيبات عجيبة !..

- وما العجيب فيها ؟

- لا أدري. وقد أقول ما قاله فريدو. إنك تذكر بهاو. فأنت تبحث عن أمور معقدة، وأحياناً أسأل نفسي ان لم يكن خيراً لي أن أرحل وحدي. أنا واثقة من أنهم في كليرمون قد يقبلون بأخذي ثانية .

- يا للحياة الظريفة !

- ينعم المرء بهدأة البال... اسمع ! هنالك مسألة تستثير فضولي ولم تجبني أبداً عليها. لماذا طوال هذه السنوات العديدة لم تكتب يوماً الى أهلك ؟.. ألا تحبهم؟.. هل فعلوا شيئاً لك؟..

وشعر بالحاجة لأن يكون مسرحياً

- إنهم عملوني أنا، بالفعل .

- لا تنطق بحماقات. أنا، أرسل كل شهر أربعمائة فرنك الى أمي وأبعث اليها بأخبار عني ...

- وهي سعيدة ؟..

- لعلها تفضل أن أمارس عملاً آخر، لكن وبعد! فأختي المتزوجة من رئيس عمال في مدينة ليل لا تبعث لها هي بشيء. بل على العكس ! فهي في كل مرة تأتي لزيارتها، إنما ذلك لتأخذ قطعة أثاث أو شيء آخر ..

- ماذا كنت أقول لك!..

- ماذا كنت تقول لي ؟

- لا شيء ! لكن هذا هو الأمر بالضبط .

- هذا هو ماذا ؟ لا أفهم ...

- إنها الحياة !...

- ألهذا لم تكتب أبداً لأهلك ؟

- لهذا ولغيره ! أرأيت الحي ؟

- إنه نظيف، وبيوته جديدة ...

- إنه مقيت !

- أنت من يرى كل شيء بعين السخط. ألم تمرضْ أبداً ؟

- أبداً ! سيأتي ذلك في يوم ما .

كان يفكر بخالته التي أخذوها وهي تطلق الصرخات، بينما زوجها يبكي في ردهة المدخل.. ثم بالخالة الأخرى التي انصرفت الى تعاطي الشراب... ثم...

وضحك ضحكة متقطعة، استمرت وكأنها لن تنتهي، ولما أخذ بعض الناس يتلفتون، حاولت ليا اسكاته.

- الزم هدوءك. ماذا بك ؟

- أفكر بأحد أخوالي .

- ليس ذلك سبباً .

- لأنك أنت لا تدرين .. اسمعي !.. بلى، هذا يستحق السماع!.. ولم يحدث أبداً ان كانوا كلموني عن ذلك الخال.. ويجب أن أقول لك إنه كان لأمي تسعة إخوة وأخوات.. وذات يوم أحد، كنا عائدين من النزهة في المدينة.. ألا تعرفين مثل ذلك ؟ كنت ممسكاً بيد أبي وأمي تمسك بذراعه.. وبقينا نمشي طوال ساعتين والنقاش دائر (ماعداي أنا!) لمعرفة ما إذا كنا سنذهب الى مكان ما، يعني إن كنا سندخل الى مقهى أو الى مسرح منوعات.. وأخيراً، ولطول ما خضنا في غبار الشوارع، كدنا نسقط تعباً وعطشاً..

- من الغباء، أن يلقي المرء بماله ثمناً لجعة سيئة. الأولى ان نشتري زوج قفازات .

كانت أمي هي التي تتكلم ...

إنما هاك، فبينما أخذنا نقترب من البيت، لمحنا هذه المرة رجلاً سكران، في أواسط العمر، وكان يبول عند حافة الرصيف ببراءة تضاهي براءة الأطفال .

وأخذ أهلي يجرونني بعيداً ... وسمعتهما يتجادلان... وانتهى بي ذلك لأن افطن الى ان الأمر يتعلق بأحد أخوالي، رمّة بشرية، لم يكن أحد يريد أن يراه بعد... هاهو السبب في ضحكي، مادمت تريدين أن تعرفي وأبعدت ليا صحنها عنها.

- وتجد انت أن هذا مضحك ؟ أعطني سيكارة، هيا!

والح هو :

- اليس مضحكاً ؟...

- توجد حالات مثل هذه في كل العائلات... فإذا وجب أن يشغل المرء باله... أمعك نار ؟

ولزما الصمت . وأحضروا لهما الحساب . وكانت خادمة المطعم لها شفة أرنب .

وسأل دو ريتر :

- هل أبواك على قيد الحياة؟

- أمي، نعم .

- وتوفي أبوك بمرض الزهري ؟

وقرصته ليا بعنف، وهز كتفيه بينما أخذت الفتاة تبتعد وقد احمرت خزياً ومن شدة الغيظ. وما إن أصبحا في الشارع حتى صرخت ليا به :

- هل جننت ؟ أتسعى لاحداث فضيحة ؟

- انت التي لا تفهمين شيئاً ... اذهبي للنوم، هيا!..غدا سنقبض أوراق النقدالعشر... عندما يخطر لي أنني شربت طوال حداثتي تلك الجعة من محل ديمولان والتي ستدر أخيراً علينا المال ...

- الن تتأخر كثيراً جداً في العودة ؟

ـ لا ادري شيئاً .

ـ عدني على الأقل بألا تشرب .

ـ وعد ! اذهبي، أيتها البلهاء ! اذهبي، غنمة! واتجه ناحية شرب جعة «طائر التم» حيث كان على موعد مع أصدقائه الصحافيين .

وكان مشرب الجعة مفتوحاً من زمانه هو ايضاً، اقل حداثة، لكنه لم يدخله . كان مكاناً للخاصة تقريباً، بمعنى أنه لا يرتاده الا صحافيون وطلاب ورسامون، وهؤلاء الأخيرون بقبعات قش عريضة الحواف وربطات طراز لافالبير.

عدة مرات، لدى مروره في الشارع، نظر اليهم بحسد . حتى انه في أحد الأيام دخل، ولكنه لم يستطع أن يجلس الا منتحياً، فما هو الا غلام في السادسة عشرة، وان يشرب ربع جعته، بأكثر ما يمكنه من التباطؤ.

أما الآن فهو يدخل رافع الرأس الى القاعة الصامتة، ويضرب الأرض بعصاه ذات المقبض الذهبي، ويمد يده.

وهم، الفنانون الشباب، والشعراء الشباب، كانوا هم الذين ينهضون لاستقباله ويقدمون له رفاقهم .

ـ السيد هوغ دو ريتر، زميل وافق على ان يكتب للمونيتور مقالات عن جمهورية الايكواتور ... منذ عشرين عاماً وهو يطوف العالم كله ...

ـ ما أعظم حظك !

كانوا جميعاً يقولون نفس الشيء، جميعهم بنفس النظرة المبهورة. السفر في العالم كله! كتابة مقالات عن الايكواتور ! والكلام عن رئيسها وكأنه صاحب قديم !

- لابد أنك تجد مدينتنا الصغيرة عديمة البهجة؟..

كان يترأس، عصاه بين ركبتيه، وقبعته مدفوعة الى الوراء.

- ماذا تشرب ؟

واسقط الكلمة من فمه :

- ويسكي !

وبالنسبة لأولئك الشباب، ذلك أيضاً كان اكتشافاً . يجب إذن أن يشرب المرء ويسكي ؟ وطلبوا . وطاش صواب النادل. وجاء صاحب مشرب الجعة ومعه زجاجة يريهم اياها سائلاً عما اذا كان هذا، فعلاً، هو ما يطلبونه وقد أحضر لذلك اقداحاً صغيرة.

وأوضح له دو ريتر أن مايلزم كان كؤوساً كبيرة وصودا، وحدد المقادير . وأعلن :

- إنه ممتاز للبول. ففي المستعمرات...

- هل عشت طويلاً في المستعمرات ؟

-سنوات.. اليكم هذه ! عندما التقيت نائب الملك في الهند...

واعترته رعشة، ومع ذلك فقد تابع عبارته. لكنه أخذ ينظر ناحية ركن من المقهى حيث جلست لتوها بخجل امرأة شقراء ممتلئة الجسم..

- سأريكم حصاة أحضرتها من هناك ...الزمردة ! الزمردة الخام الشهيرة إياها ! وتركها تسقط على رخام الطاولة بينما المرأة، في الزاوية، كانت تومئ اليه بإشارات سلبية.

كانت ليا . وهز كتفيه . كما لو أنه كان سيقدم على بيع الزمردة الى هؤلاء الصبية، الذين بمعظمهم، كانوا في مثل عمره يوم رحل .

- ماهذا ؟
- افطنوا الى ذلك وحدكم .
- حجرة مقدسة ؟ طلسم ؟
- إنها بكل بساطة زمردة بشكلها الخام . وكما هي، فهي تساوي ثلاثين أربعين ألف فرنك، وربما أكثر. ذلك مرهون بعدد القراريط التي ستفقدها عند تفصيلها... ما عادوا جرؤوا على لمس الحجرة، وعندما تدحرجت على الأرض، خروا جميعاً على الأرض ليبحثوا عنها وهم على أربع.

ليا في ركنها كانت تهز كتفيها .

وكانما تعني بذلك : «اي دهاء هذا!».

ونهض عندئذ، وقال لأصدقائه الصغار :

- هل تسمحون لحظة ؟

وسار نحوها، وإحدى يديه في جيب معطفه. وغمغم بصوت منخفض :

- اذهبي من هنا، هل تسمعين ؟
- لاباس ! لا تعمل فضيحة ...
- قلت لك اذهبي من هنا !

ونادت النادل، ودفعت ثمن كاسها وخرجت بينما عاد دو ريتر نحو أصحابه .

وكانوا مندهشين من المشهد الذي تعاقب أمامهم. وأخرج دو ريتر يده من جيبه وهو يهمس :

- لم اضطر لاستعماله ...

وذلك كما لو أنه كان يقبض بيده على مسدس ! وسأل أصغرهم سناً بسذاجة :

- من كانت ؟

- يجب أن يبقى اسمها طي الكتمان ... منذ أسابيع وهي تتعقبني ... وانا أعرف في خدمة أية دولة هي ...

وسكتوا، وقد بلغ انبهارهم الإشباع. وهو :

- ألتمس منكم العذر في ألا أفصح لكم عن أكثر . فبعض الأسرار لا نملكها...

ومكثوا ساعة أيضاً وهم يشربون ويتكلمون . أو بالأحرى كان دو ريتر هو الذي يتولى الكلام، ويروي لهم قصصاً عن كل بلدان العالم، وعن جميع الشخصيات المعروفة في الكون .

وعند منتصف الليل، وفي حين أخذ النادل وصاحب المكان ينظران الى ساعة الجدار، نهض، وأصر على ان يدفع ثمن كل المشاريب واتجه ناحية الباب . وقال لهم :

- لا ... دعوني أمض وحدي ... توجد أخطار لا يحق للمرء ان يعرض الآخرين لها .

ووضع يده من جديد في الجيب اليمين لمعطفه، وبدا كمن يقبض على عقب مسدس .

وأنصت الشباب، وقد انقبضت صدورهم، الى وقع خطاه ترن في الخلاء في المدينة الغارقة في النوم .

ـ ٥ ـ

كان من الأفضل الاقتصار على الحاضر الراهن، وبخاصة نسيان الزيارة الأولى.

ففي تلك المرة، اختار دو ريتر ساعة صباحية ومشمسه. وكان الشارع يمج بالضوء والصوت.

والحافلة الكهربائية، وكأنها نملة، لا تكف عن جعل جرسها يرن بينما فتاة بدينة تمتطي سلماً تركت فخذيها عرضة للنظر وهي تشد نفسها لتمسح لوح زجاج له شكل جلد شاموا.

وفي الخارج، على مناضد خاصة، صقلتها السنون، عرضت أحذية للعمل وأخرى للصيد وأحذية ضخمة من جلد خام، بثمان وثلاثين واثنين وأربعين فرنكاً، ونعال خفيفة منزلية من لباد أسود، وأخرى، نسائية، من قماش أزرق أو أحمر.

ودفع دو ريتر الباب الزجاجي، فانطلق منه رنين مهزول، وتريث بضع ثوان ريثما اعتاد على العتمة خفيفة النور في

المخزن وحيث ميزت نظرته وراء منصة المحاسبة قامة أنثوية. ولاحظ أنها أكبر قامة وأجسم مما كان يتوقع.

كانت مارت، طبعاً، مارت التي نظرت اليه وهو يدخل رافعة يدها الى صدرها، وبدت على وجهها تكشيرة تعبير غريبة وهتفت أخيراً :

- رونيه !..

عندئذ، وفجأة، استدارت على عقبيها، واختفت من الباب الذي في آخر المتجر في الصدر، وتسلقت جرياً الدرج الحاد المؤدي الى الطبقة العلوية.

وتوفر كل الوقت لدوريتر ليتفحص بنظره علب الكرتون المصفوفة فوق بعضها لعند السقف، وأن يتشمم أنفه الرائحة الكامدة لجلد جديد، وأن يمضي حتى الباب الآخر، ذلك الذي ينفتح على الورشة. ولم يكن ثمة باقياً فيها الا عامل عجوز أحدب تذكره دو ريتر من دون أن يتعرف الآخر عليه.

وسأل دو ريتر :

- أليس السيد سوبيرو هنا ؟

- إنه يتنزه على الرصيف بالتأكيد... وسيعود بين لحظة وأخرى.

لم يعد أمامه إلا أن ينتظر في المتجر حيث أخذ يتسكع وهو يضرب البلاطات الرمادية بطرف عصاه. وفطن بغتة الى حس خطى تعبر فوق رأسه وأنين سرير صرت نوابضه.

ولحسن الحظ أن العجوز عاد، وقبعته الكاسكيت نيرة اللون على رأسه، شأنه دائماً - كاسكيت لا يبرحها لا في البيت ولا على طاولة الطعام - وقد لبس في قدميه حذامين مطاطيين.

وسأل من دون أن يتفحص من يكلمه :

- ما الأمر ؟ أليست ابنتي هنا ؟

كانت تفوح منه رائحة عرعر كحولي. فهو منذ ثلاثين عاماً، وربما أكثر، ورائحة شراب العرعر الكحولي تفوح منه، ثلاثون عاماً وهو يتخفى، وينكر، ويذهب ليشرب خلسة في مقاه تافهة لا تصدق.

- ألم تعرفني أيها العم سوبيرو؟

ووضع الآخر نظاراته وهز رأسه.

- رونيه... شوفالييه، الابن.

- آه! نعم. وكيف حالك ؟ اجلس. اجلس يا رونيه. سأخبر مارت...

- إنها رأتني...

ولكن سوبيرو الأب لم يكن يسمع، وراح يصرخ عبر قفص الدرج :

- مارت... إنه رونيه... تعرفين، شوفالييه الصغير!.. ثم، بألم:

- أود أن أقدم لك شيئاً، ولكن كما كان الأمر تماماً في أيام زوجتي، ليس لدينا في البيت أي شيء يشرب... مبدأ! مبدأ أملته زوجتي... ما الذي يمكن أن يشغل مارت للآن؟..

ونزلت أخيراً، وظلت لحظة لابأس بها، مترددة، على العتبة، عيناها حمراوان، والمنديل بيدها.

- طاب يومك يا مارت...

وهي، بصوت متألم، مسرحي :

- طاب يومك يا رونيه... ألتمس منك العذر... كنت جديرة بالسخرية...

- لا، أبدا.

- لم أكن أتوقع...

بل كانت تتوقع طالما أن الخالة ماتيلد كانت أخبرتها بالأمر!

- ادخلا الى غرفة الطعام... لكن بلى... وأنت أيضاً يا أبي تعال...

- الأفضل أن أبقى لرعاية المتجر...

وهكذا حتى النهاية !... لم تعفه من أي من الأصول عديمة الطعم؟ وتتنهد، وتلتفت، وتمسح دمعة مختلسة، وتتظاهر بمحاولة الابتسام.

- أنا بلهاء، اغفر لي... إنه الانفعال... لكن كلمتك منذ لحظة مستخدمة المفرد المخاطب وعدم التكلف ؟

- ألم نكن نفعل ذلك من قبل ؟ يخاطب أحدنا الآخر بالمفرد ؟

- نعم، لكن.. أنتم..ترضى ولابد بشرب فنجان قهوة؟ أرأيت، أنا أبذل جهدي.. إنك أنت لم تتغير يا رونيه!

أما عندما كانت تنظر اليه، فقد كان ذلك أرهب أيضاً، وبخاصة أنه لم يكن قد أخطأ! كانت حولاء. ولها من العمر ثمان وثلاثون سنة على الأقل! ارتداؤها الملابس كان سيئاً، يفتقر الى الذوق، والى الأنوثة.

وبعد، وكل هذه الأساليب المتكلفة لاجتذابه...

- هل ذهبت لرؤية أمك ؟

- ليس بعد.

- ومتى ستذهب؟.. أتدري أنني أقرأ كل مقالاتك في

المونيتور؟ وأنا أعيد قراءتها عدة مرات. إنها رائعة الحياة التي عشتها !

كراك، مجرد تلك الفكرة وجعلتها تبكي من جديد! لم يطل البقاء. تذرع بموعد مع شخصية هامة. وجاءت توصله حتى عتبة المتجر حيث ظلت واقفة الى أن انعطف عند زاوية الشارع.

وفي المساء قال لليا بضحكة شريرة:

- جاءتني فكرة اليوم. أعتقد أنني سأتزوج أخيراً. وفاجأه أن يراها تستدير نحوه بحركة مباغتة وأن تفلت منها حركة تنم عن خشية.

وكررت وهي تتمالك نفسها :

- تتزوج ؟ مع من ؟

- مع مخزن أحذية.

كانت ليا قد تركت الإقامة في الفندق. دو ريتر كذلك لم يعد يقيم فيه. كانا قد قبضا العشرة آلاف فرنك. واضطرت ليا أن تشتري بطاقة ذهاب الى باريس، ذلك أن البير كان هناك، متوحش المظهر، مقسماً على ان يذهب كل اسبوع لرؤيتها.

غير بعيد عن الجامعة، في أحد الشوارع الهادئة، كانوا يؤجرون، في جميع البيوت تقريباً، غرفاً للطلاب. كانت بينها غرف فقيرة وأخرى أكثر رفاهاً. وفي معظمها، كانوا مقدماً يحذرون المستأجرين بأنه يحظر عليهم استقبال نساء في غرفهم.

ولكن المنزل القائم على الزاوية، وهو الأكثر ترفاً، وله نوافذ واسعة وفق طراز مدينة البندقية، كان مخصصاً للشباب

الأغـراب ذوي الغنى والـذين كـانوا يريدون أن يعـيـشـوا حيـاة مرحة.

وكـان النـاس الطيـبـون في الحي يشـيـحـون بوجـوهـهم عن المـرأة التي تتـولى شؤون البيت والتـي كـانت تقـضي أيامـهـا مـرتدية خفاً في قدميها ومـرتدية جلباباً أزرق شاحـباً والتي سبق أن كانت، اضافة الى كل ذلك، امرأة يميلها عشاقها.

ذلك هو المكان الذي اختاره دو ريتر لتستقر ليا فيه. وقد أخـذ أجـمـل شـقـة فيـه، شـقـة زاوية البـيـت على الشـارع، في الأرضي: ثلاث نوافذ مطلة على الطريق، وغـرفـة حمام وغرفة صغيرة للاستقبال تختفي أريكتها تحت الوسائد العديدة.

حالاً، شاعت في الشقة رائحة ماء الكولونيا وعطور ليا. وأحضر دو ريتر سكائر مصرية وقناني فيرموث وويسكي.

أظرف شيء كان استقبال أحد الصحفيين الصغار الذي كـان مناخ خلوة العـازب في الشـقـة الصـغـيرة يثـيـر مـباشـرة اضطراب المشاعر لديه، ويحمر وجهه اذا لمح من فرجة الباب مجرد طرف الرداء النسوي البيتي الذي تلبسه ليا فوق ثيابها الداخلية أو حين كان يسمعها تغني وهي تغتسل في غرفة الحمام.

- أقر بأنك لا تعرف الى أين تريد أن تصل.

ولعله كان قد أقر بذلك لها منذ قليل وهو يقول هازلاً : الى الزواج من متجر أحذية. كانت تلك دعابة. لكن هذا لا يمنع أنه في اليوم التالي وفي نفس التوقيت عاد الى منزل مارت، ثم في اليوم الذي أعقبه.

ولم يكن ذلك يثبت أي شيء. فقد كان دو ريتر بحاجة،

وهو يفعل على ذلك النحو، لأن يكرر نفس الحركات في نفس المواعيد، ولأن يقطع يومه الى مراحل منتظمة، ولأن يلجأ الى نقاط علام أليفة يلوذ اليها، مثل المطعم حيث لم يكن ممكناً أن يتناول غداءه فيه على طاولة غير طاولته، أو مقهى الفينيسيان حيث كان ينهي نهاره، والكشك المحدد الذي كان يشتري جريدته منه.

طوال ثمانية أيام، في مقهى الموسيقى، لم تتجح ليا بأكثر من علاقتين، على الرغم من سكونها الوديع الذي كان يتيح لها البقاء ساعات جالسة وراء طاولة دون أن يبدو عليها أي سأم.

كان يؤثر المتجر على غرفة الطعام. وكانت مارت، التي ترتدي دائماً تنورة سوداء، تبدل قميصاً كل صباح وقد اشترت واحداً من الحرير الأخضر، الا أنه حرير يبرق كالمعدن اللماع.

- ظننت أنك لن تأتي... كانت السماء تمطر و... ورغم المطر، كانت عصاه معه. وهومتكئ على حاجز المحاسبة يبدأ في حكاية القصص، وهي لا تكف عن أن تحضنه بعينيها.

- وخلال رحلاتك، ألم تراودك الرغبة أبداً في أن تتزوج؟

- تزوجت هندية حمراء، وفقاً للشعائر المرعية في بلدها، ويحتمل جداً أن لي طفلاً هناك، لونه هو ولابد قهوة بحليب بعض الشيء...

كانت الدموع تسبق الى عينيها قبل أن يبلغ النهاية. ومع ذلك فهي لم تكن بلهاء. وعندما كانت تجرؤ على قول كلام يعبر عما تكنّه شخصياً، كانت تكشف عن حس سليم هادئ البال، بل عن شيء من سخرية ماكرة في كل ما يتعلق برونيه.

- وأنت، ألا تراودك الرغبة في الزواج ؟

وأجابت :

- تعرف الفتيان هنا. آثرت البقاء عانساً... كانت تعرف أنها دميمة. ولم تكن تحاول أن تتجمل. إلا أنها مع ذلك كانت تفقد كل دمامتها عندما تتقلب فكهة فجأة، وأخذ ذلك يظهر أكثر فاكثر عليها :

- هل تنوي البقاء طويلاً هنا ؟

- لا أدري... ربما بشكل دائم.

- قيل لي...

وخفضت عينيها،ولم تلبث أن رفعت رأسها في نفس اللحظة تقريباً.

- وبعدها ؟ لا ضرر من ذلك، قيل لي إنك تعيش مع امرأة. أصحيح هذا ؟

- رفيقة قديمة، نعم، أجرها ورائي منذ بضعة أشهر. نوع من كلب وفي لصاحبه. يكفي أن أقول لها : «اذهبي» وستذهب...

كان يعرف أن بمستطاعه أن يقول أي شيء، وأن يشرع باي حركة وسيظل دائماً محل اعجاب. إعجاب شامل، من دون أي تحفظ.

- دعني أرجع الى موضوع لا تحبه يا رونيه.. أؤكد لك أنك يجب أن تذهب لرؤية أمك... إنها منذ يومين فقط أيضاً جاءت تشتري خفّين للمستأجرة عندها... وهي لا تفعل الا أن تتكلم عنك...

وكانت الخالة ماتيلد تعيد عليه نفس اللازمة. فقد ذهب لرؤيتها البارحة. وكان عليه مظهر الأهمية. بدا متعجلاً، وتكلم عن موعد ملح.

- المعذرة يا خالتي... إنهم ينتظرونني في المونيتور.. هل رأيت مقالاتي ؟ انهم يطلبون مني سلسلة جديدة... عشر مرات أردت أن آتي لتسوية حساباتنا الصغيرة وحدث ماعاقني عن ذلك.

كان باقياً معه تسع أوراق بألف فرنك الواحدة، ويضع أوراق نقدية صغيرة في محفظته. وأخذ يتعامل مع كل ذلك بين يديه بإهمال.

- إنه ألف تماماً، أليس كذلك، ذلك الذي أقرضتني اياه لصديقي ؟

كان يمنح نفسه هذه الملهاة الصغيرة الاضافية :

- أستطيع أن أعترف لك الآن أن المبلغ كان لي. والزمردة هي لي أيضاً. فيوم وصلت، لم يكن باقياً معي أي درهم في جيبي، لكن كنت أنتظر حوالة بمبلغ ضخم من شركائي. أنت غير آخذة علي ؟

كانت أكثر قلقاً، الخالة العجوز، منها فرحة!

- أليس لديك فعلاً وقت لتناول شريحة ورك خنزير معي؟

لا! وبخاصة شرائح لحم ورك الخنزير، الجامبون! هوذا شيء آخر أيضاً لا يريد سماع أي كلام عنه! ذلك الجامبون الذي كانوا في كل عائلته يجرون لإحضاره من عند لحام السجق حالما يظهر زائر جاء على حين غرة ! جامبون، سجق وجبن...

- ألم تذهب لرؤية أمك بعد ؟

- سأذهب غداً...

وقد ذهب. أول ما فعله، هو أنه حرص على أن يشتري هدية. وتذكر أن أمه كانت قديماً راغبة بأن يكون لديها سوار

بساعة، فاختار سواراً بألف فرنك، مع حبب ماس حول الإطار:

«لا يذهب المرء لعند الناس بيدين فارغتين...» عبارة أخرى كان يعرفها غيباً، وكان قد سمعها ألف مرة في بيته وعند خالاته. واشترى كذلك سرطانات بحرية وبلح بحر وزجاجات نبيذ معتق وقدراً من الحلوى كافياً لإصابة عشرة أشخاص بعسر هضم.

ثم استقل سيارة أجرة صغيرة. ومع ذلك فقد تردد. أحس أن الأفضل أن يذهب سيراً على الأقدام، لولا أنه لم يستطع مقاومة الرغبة في أن يصل الى بيته في سيارة أجرة.

وبلغت السيارة الشارع الهادئ وتوقفت بمحاذاة الباب الأخضر فجرت الآنسة العجوز التي كانت تطرز أمام شباكها لتعلن في المطبخ :

- تيريز !... إنه هو !...

- إنه يقرع...

- من تظنينه يمكن أن يكون ؟... إنه في سيارة...

- هل يجب أن أفتح ؟...

كانت السيدة شوفالييه تنزع مئزرها عنها بحركة آلية، وتمسح يديها على قماشة تتدلى بجانب المغسلة.

- أكاد أكون خائفة... ليتك تذهبين وتفتحين أنت له...

- أنا ؟

كانت إيماءة التعبير على وجه الآنسة توحي بمعنى أن صاحبة البيت قد جنت.

- ابقي معي على الأقل. لا أستطيع أن أقول لك أي تأثير غريب يحدثه ذلك فيّ!...

ورن دو ريتر ثانية. كان السائق واقفاً بجانبه، محملاً بالحوائج. وانفرج الباب أخيراً.

- السيد ؟...

واكتفى بالقول :

- هذا أنا ! طاب يومك يا أمي...

وكانت أول حركة صدرت عن السيدة شوفالييه هي أن ترتد الى وراء. ونطقت كمن تئن :

- رونيه...

ثم استدارت وصاحت :

- أوغوستين !... إنه رونيه... إنه ابني ! لم تكن تجرؤ بعد على ان تتوجه بكلامها اليه. وتركت نفسها يقبلها وبدأت تبكي. كان السائق يسد ممر المدخل بالربطات والحوائج التي يحملها. وقال رونيه :

- لحظة.

وللسائق :

- دع كل هذا هنا... انتظرني خارجاً...

- كيف ؟ هل ستذهب ثانية ؟

- عندي موعد في السادسة... سأرجع...

- ادخل... لا تكترث... ماعدت أعرف... اعطني قبعتك، معطفك...

وعلقهما بنفسه على المشجب القصب، وشرق نفساً بأنفه، لكنه لم يستعد رائحة أيام زمان.

- أتسمح بأن أدع الآنسة أوغستين تدخل ؟ منذ ثلاث سنوات، إنها هي التي تلازمني برفقتها، ليتك تعرف...

وهاهي تعود الى البكاء بأقوى من الأول تاركة وجهها ينهب ليرتاح على كتف ابنها. كانت تبكي وتقول :

- رونيه !...

ثم، ومن دون محطة انتقالية :

- يا لأبيك المسكين !...

ولم يكن هو يعرف ماذا عليه أن يفعل، ولم يتوصل لأن يتأثر بقدر ماكان عليه أن يكون متأثراً. وأخذ ينظر الى الآنسة العجوز التي ظلت في اطار الباب تنتظر أن يتم التعريف بها.

- اعذريني يا أوغستين... لم أعد أعرف أين صرت. إنه ابني... إنه رونيه !...

كانت تكرر ذلك، لكن لم تكن تحسه، وعندما تنظر اليه يظهر عليها أنها قلقة، تائهة. وكادت تغلبها الرغبة في أن تكلمه بضمير الجمع وبرسمية، وفي أن تعامله كما يعامل زائر.

- اجلس... ستشرب شيئاً ولابد ؟

- شكراً.

- كاس صغير، أم لا ؟ ابقي يا أوغستين... لست شخصاً زائراً بيننا... لا توجد اسرار... إذن، هكذا يا رونيه، هذا أنت.

- هذا أنا...

كان راغباً في أن ينهض وينصرف. كانت الغرفة معتمة. وقد جرى تبديل أماكن قطع الأثاث. وأضافوا أيضاً غيرها، ووضعوا زهوراً من ورق في أواني الزهر،وهو مالم يكن أبوه ليتقبله. وثالثة الأثافي أنه قد جرى بالأحمر تغطية الأريكة الخضراء التي كان يتدحرج عليها في صغره.

ثم رائحة هاتين المرأتين التي لم تعد رائحة عائلة.

ـ أحضرت لك معي ساعة...

قالها وهو يخرج الساعة من جيبه.

ـ امسكي.

ولم يفهم للوهلة الأولى لماذا بدا الحرج على أمه، ولكن أوغستين أفادته بالخبر.

ـ إنها نفسها تقريباً التي كنت قدمتها لك بمناسبة بلوغك الستين...

ـ لكن لا !...

ـ أقول لك إنها نفسها تقريباً...

ـ اسكتي أنت يا أوغستين ! شكراً رونيه! إنها جميلة جداً... ماكان عليك أن تتكبد هذه المصاريف...

بجهد جهيد كانت تستجمع الجرأة لتنظر اليه مواجهة. كانت ترمقه بنظرات مختلسة، خفية عنه. يكاد يقول المرء إنهاكانت تحاول التعرف عليه الا أنها كذبت قائلة :

ـ إنك لم تتغير البتة.

ثم، وكسرا للصمت :

ـ هل تتذكر هذه الصور ؟

وأخذت تريه الصور الفوتوغرافية التي تملأ الجدران والطاولات الصغيرة. كانت هي نفسها التي عند الخالة ماتيلد.

ـ المسكين أبوك !... هل تتذكر، عندما كنا نذهب الى الريف ؟

إنما لم تكن تلك هي الصور التي أخذ ينظر اليها. بل كانت ثمت غيرها، لا يعرفها، صور لأبيه بلحية رمادية صغيرة،

بيضاء تقريباً! واخرى كان أهله فيها بجانب أناس لم يسبق ان رآهم أبداً.

ولم يكن بعيداً عن أن يحمل في نفسه غيظاً من أبيه الميت كما بالنسبة لأمه.

- أتعرف أن الخالة ماتيلد لم تعد تأتي ؟

وعض على لسانه إنما بعد فوات الأوان، إذ سبقته عبارته:

- أعرف...

- هل رأيتها ؟ وأين ذلك ؟..

- التقيتها...

لم تصدقه. كان يعرف أمه ! لم يسبق لها ان صدقته أبداً، والآن كانت تراقبه بارتياب.

- وماذا قالت لك؟ يمكنك أن تتكلم بحضور الآنسة أوغستين التي، هي، تتمتع بتربية.

- قالت لي إنكما تخاصمتما. هذا كل الأمر.

- لأنها كانت غيرى، هذه هي الحقيقة. فهي عندما توفي أبوك اعتقدت أنها ستستقر هنا، وأنها ستكون كل الكلمة لها.

كان دو ريتر يصغي بشكل سيء. كان يفكر. فقد لاحظ أن أمه لم توجه له أي سؤال عن نفسه.

- وافهمتها انني السيدة في البيت وانني أستقبل فيه من أريد... هل تتذكر أمها؟ تلك كانت امرأة طيبة ! وكيف حدث أنني لم أكن أدعك تأكل سكاكرها!... ذلك أن صحتك هي كل ماكنت أفكر فيه أنا ! لم أفكر يوماً الا بصحة الآخرين... أنت لا تعرفين ما ذلك يا أوغستين ! اسألي ابني... اسأليه كيف ربيته... مامن شيء كان أطيب من أن يوفر له...

ـ اسمعي يا أمي...
ـ لا تقل إنك تريد أن تذهب الآن ؟
ـ ليس بعد... على أية حال، سأعود لأراك...
ـ ولماذا لا تسكن هنا؟ عندي غرفتان خاليتان. ستكون محل عناية كما لن يتوفر لك ذلك في أي مكان آخر...
ـ هذا مستحيل...
ـ إنك تجد البيت مفرطاً في فقره، أليس كذلك؟
ـ لا. أبداً يا أمي.
لم ينادها ماما، ويجهل لماذا.
ـ ماكدت تصل، وتريد أن ترحل من الآن !
كانت مرتابة فيه، تراقبه بحذر، بقصد أن تتكهن ما أفكاره...
ـ ليس البيت بهيجاً.
ـ اقسم لك يا أمي... يجب أن أبقى حراً في تحركاتي... فأنا أعمل...
ـ عندك ولابد ربع ساعة ؟
ـ نعم.
ـ انتظرني دقيقة... سأعلم خالك هنري، الذي سيكون سعيداً لدرجة...
وجأر :
ـ لا !
ـ ألا تريد أن تراه ؟
ـ طبعاً لا ! فأنت تعرفين جيداً أنني من الأصل كنت أمقت أخوالي وخالاتي.

ـ أتسمعين يا أوغستين ؟ ماذا كنت قلت لك؟ لقد كان دائماً هكذا! منذ كان في الخامسة وهو يجيبني : «لماذا أقول: طاب يومك لهذا السيد؟ إنه صديقك أنت! وليس صديقي...».

ولم يعد دو ريتر يملك القدرة على المتابعة، وما عاد يعرف أين هي الحقيقة وأين الاسطورة. تولد انطباع لديه بأنه إنما يعيش كابوساً ـ وما يراه لم يكن يشبه الصور الفوتوغرافية لتلك الأفراح الصغيرة أيام زمان، في الريف، أو عند عتبة البيت في ذات يوم مشمس.

ـ اسمعي ماما...

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقول لها فيها هذه الكلمة. واذا ما تمكن من النطق بها، فذلك بالضبط لأنه لم يكن يعنيها، لأن ذلك كان تمثيلاً في مسرح.

—... عليّ قطعاً أن اذهب... سأعود غداً.

ـ أليس لديك الوقت لتناول العشاء معنا ؟

العانس العجوز الأخرى التي مازالت هناك، ممتلئة دهناً ومحتقنة! شعر بالمقت لها. ولاح الأمر تقريباً كما لو أنها سرقت منه أمه!

ـ دعيني أذهب... كنت أريد رؤيتك بأي ثمن...

ـ هل وصلت اليوم ؟

وكانت تعرف جيداً أنه، يا للرب، كان في المدينة منذ خمسة عشر يوماً !...

ـ لا... لم أكن أجرؤ... بعد كل تلك السنوات...

ـ ألم تتزوج؟.. أتعيش وحيداً؟...

تمنى تقريباً لو يضربها. فهي مادامت تقول ذلك، فمعناه

أنها تعرف الحقيقة! لكنها كانت طريقتها في قذف التلميحات، عذبة المظهر وبريئة.

ـ الى الغد... سأعود...

واتجه ناحية ممر المدخل، نحو مشجب القصب.

وسألت أمه وهي تشير الى الرزم والطرود :

ـ ما هذا ؟

ـ بعض أشياء صغيرة أحضرتها لك.

وبذلت الجهد لتنطق

ـ هذا كثير جداً !...

مايزالان في إطار التمثيل ! وأحس مع ذلك تحت طبقة المقاومة، دموعاً جاهزة لأن تسيل، ولتدفق فيض حقيقي.

لم يسبق أن عرف البيت شيئاً من هذا القبيل. وجاءت أوغستين الى عتبة البيت، هي أيضاً، كما لو كانت فرداً من العائلة، وتبعت المرأتان بنظرهما سيارة الأجرة وهي تبتعد.

وألقى رونيه بعبارته للسائق :

ـ الى المدينة... أي مكان كان.

كان شيئاً أشبه بالاغتسال ان يرى ليا مجدداً جالسة الى طاولة في مقهى الموسيقى. وطلب كأس ويسكي.

وأخذ شباب صغار يعرفون من هو ينظرون اليه بإعجاب.

ـ هل رأيت أمك ؟

ـ رأيتها.

ـ ماذا قالت ؟

ـ لاشيء.

ولم يكن كاذباً على وجه الإجمال. اذ ماذا قالت؟ إنها لم

تتكلم الا لتبرر وجود المانس ذات الرأس الميدوزية في البيت كما لو أن الأمر كان من الخطايا. أما عنه فما من كلمة.

بعض كلام عن الماضي، ولكن ليس بقدر مافعلت الخالة ماتيلد..

«... عندما كنا نذهب الى الريف مع المسكين أبيك...».

سوى أن الحياة لم تتوقف عند ذلك، اللعنة! حتى ولا حياة أمه ! والبرهان، هو أنها احمر وجهها عندما رأت الساعة، لأن واحدة أخرى مطابقة تماماً كانت عندها ! وتريد أن تخفي ذلك! لقد شعرت بالخجل كما لو أن عشيقاً هو الذي كان أهداها إياها.

- ماذا نعمل الليلة ؟

- سأتناول العشاء عند مدير المونيتور.

- قليل جداً ما تخصني به.

- طبعاً.

- لست مهذباً. ماذا بك ؟ يخال المرء أنك حانق.

- لا! لم يكن شيئاً، لا كان حانقاً ولا مسروراً. وسأل مستخدماً عمداً مصطلحاً من المهنة.

- أما من اصابة ؟

- قد يتوجب أن أجامل مدير الخدمة في المطعم.

أفهمني ذلك قبل قليل. فهو عادة لا يترك نساء وحيدات يجلسن مدة بهذا الطول...

كان مدير الخدمة في المطعم بعيداً قليلاً، مرتدياً الأسود. أبله تافه، يظن نفسه شاطراً.

- ومتى حدد لك الموعد ؟

- هذا المساء، عند الإغلاق.

- لابأس !

- أوافق ؟

ولأول مرة استثار غياب غيرته غيظها منه وأظهرت ذلك.

- ذهبت لرؤية مخزنك للأحذية هذا الصباح ؟

-ولم لا ؟

- أما يزال أحول ؟

- أقل فأقل.

- سأعتقد في آخر المطاف بأنني غلطت.

- ماذا تقصدين ؟

- لاشيء.

وقرص ذراعها بروح الإيذاء وهو يكرر :

- ماذا تقصدين ؟

- أقصد أنك لست حتى هاوياً... أنت من هنا، ومن هنا بكل معنى الكلمة... من حيك، من شارعك!... إنك في البداية أردت أن تتفاخر وتكابر... ثم عاد ماهو فعلاً بداخلك للظهور... عندما يخطر لي أنني لم أفهم، وأنني ظننتك قادراً على اقتراف ما لا أعرف، وكنت أفزع... إنك لا تكون أبداً سعيداً بقدر سعادتك عندما تمظ وتطنب بلا نهاية وسط حلقة من البلهاء الصغار... بلى، ربما ! عندما تغازل آنسة الأحذية، التي تشرب كلماتك.

- غبية !

- أتريد أن توضح لي لماذا ؟

- لأن...

ـ أتراهن على أنك ستتزوجها.

ـ أبداً.

ـ بماذا تراهن ؟

ـ إه. حسناً، أراهنك على أول ليلة من زفافي... إذا فزت، ستأتين لقضائها معي...

ـ هذا عته...

ـ هل ولى تبجُّحك ؟

ـ لا أحب المراهنات البلهاء.

ـ أرأيت !

كان النادل يراقبهما. وأبعد منه قليلاً، لاح مدير الخدمة في المطعم وعليه أمارات الانتعاش لفكرة أنه عند منتصف الليل سيقدم لنفسه ليا.

ـ بكل الأحوال، ولماذا لا يمكن أن تبيع أحذية ؟ إنها مهنة مثل غيرها. وستقمل مثل صديقك ألبير...

ـ نعم ؟...

ـ تسلو بين الحين والآخر عن زوجتك الحولاء، مواسياً نفسك مع فتاة ظريفة.

ـ اسكتي بعد.

ـ إذن، قل لي بصدق ما الذي تفكر فيه. لا تكذب يا رونيه... ما الذي تخفيه وراء جبينك؟

وتجهم من دون أن يجيب.

ـ اعترف بأنك مقلوب الحال عاليك سافلك. إنك ماعدت تعرف... أقر بأنني كنت محقة عندما أردت أن أذهب بك معي من هنا أياً كان الثمن... خذ مثلاً، على سبيل البرهان، إنك

حملت حقيبة سفرك الضخمة الى مستودع الأمانات خشية أن تساورهم الريب حول مهنتك القديمة.

- هذا غير صحيح.

- ما الصحيح إذن في هذه الحال ؟ أتحب أن نرحل ؟ مايزال لم يفت الوقت. لدينا مصروف جيب... وبما أنت عليه من فطنة.

- هاهه! تتنازلين لي أخيراً بالإقرار بفطنتي؟

- بل أنت فارط الذكاء...

كانت الجوقة الموسيقية تعزف كونت لوكسمبرغ، مع انفرادات طويلة لآلات الكمان. أصوات صحون الأقداح. والندل الذين يسيرون على أطراف أصابعهم لئلا يعكروا على الموسيقى.

- الا تريد ؟

- ماذا ؟

- أن نرحل... أعرف بلداً مذهلاً : مصر... حالما نصبح في ملهى، أراهن...

- طاب مساؤك.

- أمغادر ؟

- إنني مدعو على العشاء، كنت قلت لك ذلك.

ومضى، أولاً الى المغاسل فغسل يديه، ثم رتب شعره بالمشط، بعناية، وأعاد عقد ربطة عنقه. وبعد ربع ساعة كان عند مدير المونيتور، وهو رجل ملتح صادق وساذج، استولد زوجته ثمانية أطفال ويعتبر باريس مدينة مفزعة.

- أقدم لك...

كانوا حوالي العشرة حول الطاولة. الفوط مطوية على شكل مروحة. أربعة كؤوس بالنسبة لكل صحن وزهور في كل مكان.

- ليتك تروي لنا حكاية أحد أسفارك ؟ أتعرف أن مقالاتك عن الإكواتور لاقت نجاحاً كبيراً ؟ ماكان يجب أن أقول ذلك لك...

وكان رونيه يبتسم، بتواضع. كان جالساً عن يمين سيدة البيت. ورئيس التحرير مكانه على اليسار.

- وللأسف، فأنت طائر مهاجر ماهو الا عابر بنا... فبعد بضعة أيام، سنعلم بأنك اختفيت عنا... نحو سماوات أخرى ولن يبقى لنا إلا عيوننا لتبكي...

وراح دو ريتر ينطق بكلماته متمتعاً بقدر ما يهوى بغموضها السري.

- إلا اذا قرر الطائر أن يبني عشه.

- أحقاً ؟ وهل استرعت أنظارك إحدى مواطناتنا ؟

- من يدري ؟

- قد يمكن ان نلعبها لعبة أحاج... في أي وسط اجتماعي؟ ليس في دنيا الصحافة حيث لا توجد أية مرشحة للزواج..

وجازف أحدهم

- في القضاء؟..

وألمح محرر شاب دعي لأنه كان ابن أحد أساتذة الجامعة:

- في الطبقة العليا ؟

وكان دو ريتر يرفع أصبعه الصغير وهو يأكل، ويبتسم، ويشحذ جملاً معبرة عن ظرف.

وهو، طبعاً، لم يأت على ذكر الحذاء، ولا شارع الكومونة.

- ٦ -

نصف نائم، اكتفى بترك شق رقيق جداً بين جفنيه، يغلقهما كلما حانت التفاتة من ليا فنظرت مباشرة الى وجهه .

وكانت في المشمل البيتي، الرداء النسوي الملتف على الثياب الداخلية، مشجر، ومضت حال نهوضها من السرير لتفتح الستائر، تاركة الشمس تقتحم الغرفة، مثل فارس خلع الأبواب، على شكل مثلث ضوء يلعق قدم السرير، ويلهب الكرسي الذي كانت قبعة جان عليه.

كانت ليا قد رتبت هندامها في غرفة الحمام المجاورة، واضطر دو ريتر لأن يغفي . وأيقظه إحساس بالهناءة مع هبة هواء رطبة من النافذة التي فتحتها ليا للحظتها، نفذت الى الغرفة حاملة بنفس الوقت مجموع أصوات الطريق الأليفة .

وقد بقي أمام ليا ان تخرج مرة أخرى أيضاً، يعرف ذلك، لتأخذ من المطبخ صحفة الإفطار. وقد تجاوزت الساعة

التاسعة وبلغت العاشرة تقريباً. والنهار يتوقع له أن يكون حاراً لأن سيارة رش البلدية تجوب الشارع ببطء.

وشرب دو ريتر خلسة قليلاً من الماء . كان لسانه جافاً، الا انه كان قد أغلق عينيه عندما عادت ليا مع الصحفة وهي تمشي على رؤوس أصابع قدميها. ومن دون صوت استقرت بجانب النافذة. وسمع حفيف جريدة لا أكثر، وارتطام خفيف لبورسلين لا يكاد يسمع. وكان هذا كل شيءلبعض الوقت .

إنما طال ذلك، لدرجة أن دو ريتر فتح عينيه، قلقاً، لكن لا ا فهي مازالت هناك، إحدى يديها على فنجان القهوة، عاكفة على قراءة الجريدة. كان بائع الحليب يدق على البيوت، بابا، بابا، وفي باحة المدرسة، انفجرت نوبة ضجة ثاقبة الحدة في ارتفاعها.

وسمع طنين صوت يقول :

- أيمكن أن أدخل ؟

كانت تلك هي المؤجرة، ورمقها بنظرة عبر شبكة أهدابه . كانت ضخمة حقاً. تمثل - على سمراء ما ستصبح ليا عليه بعد عشر سنوات أو خمس عشرة. هي أيضاً أخذت تسير على رؤوس أصابع قدميها، لافة جسمها في مشملها المنزلي الأبدي أزرق اللون الذي، شأنه دائماً، يظل منفرجاً عن قميص صغير.

ولم يكن ذلك قلة حشمة منها. أو أملاً في أن تلهب رغبات ما. فهي تعرف أن ذلك قد انتهى . ولم تكن كذلك تأبه بأن تثير السخرية . وهي، أياماً كاملة كانت تقضيها على تلك الصورة، تجرّ خطاها بين نزلائها المستأجرين، وشعرها ملفوف بملاقط معدنية فوق رأسها وأحياناً، عندما تنحني كان نهد مائع الرخاوة يفلت حتى من دون أن تنتبه .

وهمست ليا :

ـ أتتناولين قدح قهوة ؟

ـ لا . شكراً.

وأخذتا تنظران اليه في نومه، ثم ذهبت صاحبة البيت فأخذت قبعة جان العالية من على الطاولة وتأملتها باعجاب . كرسي آخر كانت ملقاة عليه قطعة ملابس، صدرية بيضاء، وعلى الأرض، قميص يثقله صدر منشى يبدو ناشراً ذراعيه .

ـ هل تسلى جيداً ؟

ـ أعتقد أن نعم. فقد عاد في الرابعة صباحاً .

كان دو ريتر سعيداً . فهو يحب أن يسمعهما تروحان وتجيئان حوله هكذا بلا صوت، وتنتفضان لأقل حركة منه، متكلمتين عنه، ومرتبتين أغراضه بعناية. وكان يحب أن يلمح حيناً جزءاً من الرداء المنزلي الأزرق، وحيناً آخر جزءاً من ذلك المشجر، في غرفة النوم التي قسمتها الشمس الى مساحات .

وكان يحب أن يكون السرير من النحاس، واللحاف من الحرير الأصفر وأن كل شيء يتنفس جواً فاخراً، ربما رخيص الذوق، ولكنه شيء من بذخ بكل الأحوال . على الجدران، صور مطبوعة لا تمثل الا نساء عاريات، ولكنها تظل مواضيع تقليدية: فينوس خارجة من الماء، سوزان والشيوخ...

كانت ليا تقلب جيوب بذلته وتدلك لطخة على قفا البذلة، وتبحث عن الفرشاة .

ـ هل له مقال فيها اليوم ؟

ـ لا أعرف .

كان قد أوصى على هذه البذلة في مطلع الأسبوع وتوجب

عليه لذلك ان يقصد اختصاصياً بملابس المآتم، ذلك أنه كان بحاجة اليها في ظرف أربع وعشرين ساعة، للحفلة الساهرة التي تقيمها البلدية. وقد زودته المونيتور ببطاقة دعوة، فجرى جرياً الى المتاجر لشراء القبعة العالية، والقميص ذي الصدر المثقل بالنشاء، وأزرار الكمين، وفي اللحظة الأخيرة، الليلة الفائتة، مساء، وقع على ليا أن تعدو كالفرس عبر كل الحي، لأنه كان نسي لؤلؤة الصدر المنشّا.

تحضيرات كثيرة من أجل لاشيء. وبالتأكيد كان هنالك جمع غفير،إنما بالمقابل، فهو لم يلتق الا شخصاً واحداً من معارفه، وهو محرر عتيق، مايزال يكتب منذ أربعين عاماً الأخبار الصغيرة من نوع تلك الخاصة بـ «الكلاب المدهوسة»، وهو لم يغادر ركن الأكل والشرب .

عندئذ، وباعتبار أنه كان مرتدياً ثيابه إياها ولا يريد أن يعود باكراً الى البيت، فإنه قضى وقته في ملهى ليلي تميس، بين راقصتين كانتا تتثاءبان .

وسألتْ ليا :

- الم يقرع أحد على صندوق البريد ؟

وانحنت من فوق النافذة وأعلمت صاحبة البيت :

- إنه ساعي البريد .

وبدأ دو ريتر يضجر من التظاهر بالنوم.ومع ذلك فهو قد انتظر المؤجرة أن تعود وأن تعلن :

- رسالة لك .

- هل تسمحين ؟

وقرأت ليا الرسالة على نور الشمس قرب النافذة .

- مامن شيء سيء على الأقل ؟

- لا .

وترك هو عينيه تنفرجان مقدار ميليمتر واحد، في اللحظة التي دست ليا الرسالة فيها تحت كومة من الملاءات، في الخزانة.

- لابد أن يكون تعباً، مادام قد رجع في الساعة الرابعة.

وكانت تلك هي اللحظة الملائمة تماماً. فقد تحرك دو ريتر، وتمطى، وغمغم:

- قهوة .

والمؤجرة التي تخف مجيبة :

- سأحضر لك قهوة ساخنة .

وسأل ليا :

- هل من بريد ؟

- لا . جرائد فقط .

ورتب وضع الوسادتين وراء كتفيه وغمغم أيضاً :

ناوليني المشط .

ذلك أنه كان يرى نفسه في مرآة منضدة زينة ولم يكن يحب أن يرى نفسه وشعره مبعثر الخصلات .

وثم وضع الصحفة فوق ساقيه الممدودتين. وأكل ببطء وهو ينظر الى المرأتين تنهيان ترتيب غرفة النوم .

وسألت المؤجرة التي بالقميص الصغير

- الم تعودي بحاجة الى شيء؟

- لا . شكراً .

- اعطيني الجرائد...

واقتربت ليا واحتفظ بيدها في يده، وهو ينظر في عينيها بإلحاح

- ماذا بك أنت ؟

وتمتمت :

- ماذا يمكن أن يكون بي ؟

لم تكن طبيعية. وهو كذلك على أية حال .

كانت أصوات الشارع تواصل مرافقة حديثهما بموسيقاها، بما في ذلك زقزقة عصابة من عصافير الدوري التي كان أحدها، هو نفسه دائماً، يستهويه أن يحط على حافة النافذة .

- ما الذي يعتريك يا ليا ؟

كان قد مضى عليه خمسة عشر يوماً للآن وهو يرى مارت كل يوم تقريباً . وكانوا قد وافقوا له في المونيتور على نبذة يومية كان يذيلها بتوقيع : كو هاديس. ولم يكن بمستطاعه ان يواصل الإقامة مع امرأة عرفياً وقد حزم أمره على أن تبحث ليا لنفسها عن غرفة في حي آخر، الأمر الذي لن يمنعهما من أن يلتقيا .

وسأل :

- هل أنت مصرة على أن تعقدي حياتي، صحيح؟

- ليت الأمر كذلك! فأنت تعقدها بما يكفي بنفسك! بل حياة الآخرين أيضاً بالإضافة اليها .

- ماذا تقصدين ؟

- لاشيء... دعني !

كان قد أفلت يدها ورآها تستدير بحركة سريعة. وأيقن أن تكشيرة بدأت ترتسم على وجهها كشخص راغب بأن يبكي .

والأمـر، ان ذلك كان عكس ماهـو عليـه طبع ليا التي لم تأخـذ الأشياء يوماً مـأخذ الجد، وتأثر شعورها كان أيضاً دون ذلك .

- قلت لك ناوليني الجرائد .

كـان يفـضل ان يسـتـمـر في مـراقـبـتـهـا خلسـة. وتظاهر بالقراءة كماكان قد تظاهر بالنوم .

- كم الساعة؟

- العـاشـرة والـربع... كـان عليك الآن ان تكون في طريقك لرؤية خطيبتك .

- ليا، كنت طلبت اليك قبل الآن ...

- ... الا اتكلم عن هذا الأمر... عفوا!

وأخذت تلم حـوائج من مـلابسـهـا متناثرة هنـا وهنـاك على الأرض .

- تعرفين جيداً أنني لست مخطوباً ...

- ولكنك ستتزوجها مع ذلك.

- سيكون الأمر على نحو مختلف تماماً. وهل منعتك أنا من أن تصبحي عشيقـة ألبير ؟ وربحنا من ذلك عشرة آلاف فرنك. هنا، المسألة هي...

- إنهـا ليـست مـسـألة مـال . الأمـر يتـعلق بحـيـاة، حـيـاتك أنت...

- يملك سوبيـرو الأب أربعة منازل، أحدها هو الذي يشغله والذي يساوي على الأقل مائة وخمسين ألف فرنك...

- تكرر هذا عليّ بما فيه الكفاية.

- أنت غريبة اليوم .

- ليس بي شيء.

- اذن، اعطيني الرسالة التي تلقيتها قبل قليل .

- أية رسالة ؟

- تلك التي أخفيتها تحت قمصانك .

- لا!

كانت تلك هي أول مرة ترفض له فيها شيئاً، وشعرت بغصة تمسك بحلقها لذلك .

- أتريدين أن أنهض ؟

- لن تحصل عليها .

- ممّن هي ؟

- إنها شؤوني ... إنها ... هي من أمي ...

- إذن، أريني فقط التوقيع .

- لا .

وتظاهر بأنه ينهض، بعدما قذف بالصحفة على الأرض، حيث تهشمت أواني الطعام. وسمع بوضوح قاطع، عقب ضجة التحطم، الخطى المختلسة للمؤجرة وراء الباب .

- ألا تريدين ؟

- أنت وشأنك .

وفتشت بحركات محمومة كدسة الملابس الداخلية، وقذفت بالرسالة على السرير . كانت الكتابة مفتقدة للإتقان مع أخطاء إملائية .

«عزيزتي ليا :

« قرأت رسالتك الطيبة للزميلات وسررنا جميعاً بتلقي اخبارك. هنا، لاباس، رغم ان اللواء ابعدته المناورات لمدة

شهر. وقد قالت لي المدام هكذا، أن أكتب لك وأن أقول لك أن مكانك مايزال محفوظاً لك في البيت . كانت تتوقع ماحدث. وتزعم أنها كانت قالت إن ذلك لن يستمر شهراً...».

ثم تفاصيل أكثر خصوصية :

«إن ماري هي التي أخذت الأسمر الطويل. أما رجل البريد فهو الآن يأتي لموافاتي كل يوم سبت. أما ذو الشعر المجعد...».

- متى كتبت لها ؟

- قبل أربعة أيام .

- أتريدين أن تعودي الى هناك ؟

الكلام كان يتعلق بشكل بديهي ببيت كليرمون فيران.

- لا أدري .

ونهض، وهو في منامته، وسار نحوها، ذلك أنه لم يعد يعرفها.

- هل أصابك جنون؟ قولي .

بينما الأخرى، البدينة، وراء الباب دائماً.

- وماذا تريدني أن أفعل هنا ؟

- وهل طلبت اليك أن تفعلي شيئاً؟ ألم أعدك بأن أذهب لرؤيتك كل يوم ؟

- ليس ذلك نفس الشيء...

وشرقت بأنفها . فعقد حاجبيه . وفي اللحظة التالية أخذت تبكي حقاً، وكأنها مجدلية، وفقاً للتعبير وهو الأمر الذي لم يسبق أن حدث لها أبداً .

- اصغي يا ليا ...
- لا تضربني !
- لن أضربك، لا ! ولكنك ستحلفين لي بأنك لن ترحلي...
فهزت رأسها نفياً.
- ستقسمين لي، وإلا ... فلن اضربك، لا ... واعتقد أنني بالأحرى سأقتلك ...
واستدارت نحوه وعيناها مفتوحتان عن آخرهما .
- لماذا ؟
- لأن .
- ألا تريد أن تعيش من دوني ؟
- لم أقل ذلك .
- أوه، أعرف... فأنت لا تريدني أن أعود الى هناك لأنك متكبر... ولأنك تنفر من أن يمكن لأحد أن يقول : إنني تخليت عنك .
- اغلقي فمك !
- أقر، إذن !
- هذا غير صحيح .
- ستتزوج، أعرف ذلك ... ولكنك تمنعني من استعادة حريتي ... ولو كانت عندك خمس، ست، عشر عشيقات فأنت تريدهن جميعهن حولك... اعترف يا رونيه! اعترف بذلك، مادمت مطلعة...
بدا له أنه كان يسمع صوت أمه التي كانت تزعم هي أنها تفطن لدخيلته في أوهى فكرة تخطر له، وبخاصة السيئة منها.
- قولي إنك ستبقين .

- مادمت ستتزوج... أترى ! أنت لم تعد حتى تجرؤ على نكران ذلك.

- لكن بماذا يمكن أن يزعجك الأمر أيتها الغبية ؟ مادمت أكرر لك أنني أتزوج منازل !

- الأمر سيان!

- وصرت تغارين من البيوت الآن ؟

- لست غيرى . وإنما بدأت أعرفك. وأفهم الآن لماذا جئت الى هنا. وإنني الآن أدرك لماذا أصررت على أن تبقى رغم كل شيء. أحسست ذلك منذ أول يوم من دون أن أعتقد بأن ذلك سيسير بهذا القدر من السرعة...

- ماذا ؟

- أولاً زاويتك اليومية في المونيتور ...

- غيرى من مقالاتي أيضاً ؟

- ومجموعتك، كل ليلة، في المقهى ...

- أيضايقك هذا ؟

- انتهى، بت أتبين الأمر... فريدو كان محقاً... لم تكن الا مجرد هاو... وباعتبار الأمر، لا أرى ما الذي يمكن أن أفعله هنا .

- اسكتي !

- لا !

وطاق ! صفعة ملء وجهها! ونظرت اليه بذهول، بامتنان تقريباً .

- هل فهمت

كانت هنالك حركة وراء الباب . وسيارة الرش تحت النوافذ بالضبط، تجر وراءها مطرها السائل .

ـ اقسمي على أنك لن ترحلي ...

ـ اذا ما حلفت لي أنت...

ـ على ماذا ؟

ـ على أنك لا تحبها !

ـ من ؟ القتاة الحولاء ؟ الحذاء ؟ هل جننت يا ليا ؟

كان خدها الأيسر مايزال محتقن الحمرة. وجربت نفسها في الابتسام، ومشت في الغرفة .

انت أكثر تعقيداً حتى مما ظننت ... في البداية تخيلت أنك ستوقع مصيبة .

ـ أية مصيبة ؟

ـ لا أعرف .

ـ أن أقتل أحداً، آ ؟

ـ ربما .

ـ من ؟

ـ أياً كان

ـ سمي أسماء ...

ـ البير... أو الآنسة الهرمة ...

ـ الخالة ماتيلد ؟

ـ اعترف أنك خطرت الفكرة لك، ولو للحظة ؟

ـ استمري .

ـ أ...

ـ أم.. ماذا ؟

ـ أمك.. نعم ! خطر لي أنك لن تتورع ...

وتناول من الخزانة الجدارية زجاجة الفيرموث وسكب

لنفسه منها كأساً مليئة شربها جرعة واحدة.

وقال بلوم :

- ماكان عليك أن تكتبي لكليرمون - فيران.

- عفواً!

- ما الذي سيظنونه هناك؟ تلك بلاهة ! فأنت تعرفين جيداً أنني لن أدعك ترحلين ...

- لماذا ؟

وردّ مرة أخرى بنفس الجواب :

- لأن ! .. أعدي لي ملابسي، بالمناسبة، يجب أن أمر على المونيتور ...

- ولعند الحذاء ...

وفتح الباب، بدرجة من المباغتة الفظة بحيث أن المؤجرة لم يتوفر لها الوقت كي ترجع الى الوراء وكادت تفقد توازنها.

- ادخلي .. أقادرة أنت على إمساك لسانك؟

- وتطرح هذا السؤال علي أنا ؟

- ستعطين ليا غرفة أخرى في المنزل ... ويجب الا يعرف أحد أننا يرى أحدنا الآخر، هل تسمعين ؟

- هذا يمين!.. عندي غرفة خالية بجانب هذه. وبإزاحة خزانة الدروج، يمكن حتى الانتقال اليها من باب الاتصال...

بدت ليا مشرقة الأسارير . وأخذ دو ريتر ينزع سترة منامته كاشفاً عن صدر ضيق وشاحب .

- أعدي لي حمامي ! ... أسرعي !...

وأشعل سيكارة، وبينما كان الماء يسيل من الصنابير، ألقى نظرة على الجريدة .

لو أن سوبيرو العجوز كان هناك، لسارع بأن يغمغم:

- آن لي أن أذهب للقيام بنزهتي ...

حتى ولم يكن بحاجة لأن يضع قبعته الكاسكيت ما دامت تبقى على رأسه من الصباح الى المساء .

وقد شرح الأمر مرة واحدة وكفى :

- أمرني الطبيب بالقيام بخمس أو ست نزهات يومياً. معناها، خمسة أو ستة أقداح صغيرة من العرعر الكحولي! ذلك أن الأب سوبيرو كان أصله من بولون وماكان مقابل أي شيء في العالم ليشرب غير كحول الحبوب .

لماذا نفر دو ريتر من غرفة الطعام وتأبى عليها؟ ماكان بمستطاعه أن يقول لماذا. لم تكن تستهويه كان يؤثر المتجر دائماً عندما يكون مغموراً بالظل، والعلب البيضاء والصفراء مطبقة بعضها فوق بعض لعند السقف، واسطوانة البكل مع ورق الصر والخيط الأحمر المحتجز في كرة مشبكة، يتدلى منها طرف الخيط بمتناول اليد .

وشـــأنه في كل مكان، بات له مكانه، زاوية منصـــة المحاسبة، ناحية صدر المتجر، والذي كان يضع فخذه عليها. وكانت مارت تظل واقفة أمامه، باسمة، ودائماً خائفة قليلاً.

في كل زيارة له، كان يبدو أنها تخشى أن تسمعه يعلن :

- بالمناسبة، أنا راحل غداً الى الصين من جديد ! وفي الواقع، لم تكن دميمة بذلك القدر. وذات مرة، تجرأ على أن يقول لها :

- ألم تفكري بإجراء عملية ؟

وردّت :

ـ من أجل من ؟

وكان هو الذي لم يجد شيئاً يجيبها به. لم تكن تؤخذ أبداً على حين غرة. وكان مندهشاً من كل ما تعرفه. فمنذ عودته مثلاً لابد انها قرأت مؤلفات عديدة حول البلدان التي كان قطعها، لأنها كانت تذكر له تفاصيل هو نفسه لا يعرفها .

كانت تقول، بمزاجها الظريف الذي لا ينضب :

ـ إنني ولدت بالأحرى لأداء عمل سكرتيرة. لا أملك أية عبقرية، ولا شرارة، ولكن لي صبر النملة.

ولم تكن من قلة الذوق بحيث تغير كلياً، من الألف الى الياء، طريقتها في ارتداء الملابس. فهي قد بقيت صارمة، كابية بعض الشيء، لكن كأنما تتخللها أشعة شمس. لطخة لون من هنا ... عنق أكثر انكشافاً قليلاً، أكمام أقصر.. كانت طبعاً تقرأ مقالته اليومية. وتناقشه فيها. وأحياناً لا تكون من رأيه . وكانت لديها اجابات تحيره .

سألها مثلاً ذات مرة :

ـ ألم تفكري أبداً بأن تعيشي في مكان آخر :

فتجيب ضاحكة :

ـ وأنت ؟

ربما كان في الأمر بلاهة. ربما كان ذلك عميقاً جداً . كانت معجبة به، بديهي ذلك. إنما معجبة به بلا تحفظ ؟

وكان يحدث لرونيه أن يقول لنفسه : إنها لا تكن له أي إعجاب به، بل هو حب فقط .

معناه اذن أنها مثل ليا التي كانت تأخذه هي أيضاً على أنه هاوٍ هنا، كان يعنى بصدق قصصه بصورة أكبر مما عندما

يحاضر بخطبه أمام حلقة الصحفيين والفنانين . وحدث له ان استشار مقدماً مرة إحدى الموسوعات في مقهى .

ذلك أن مارت كانت قرأت كل شيء! بما في ذلك كمية كبيرة من مؤلفات يجهلها .

ذلك اليوم، وربما لأنه كان متوتر الأعصاب من حديثه مع ليا، فإنه سأل:

- أين كل كتبك ؟

- في غرفتي ...

تلك الغرفة حيث كانت له، وفقاً لما أعلمته به الخالة ماتيلد، صورتان معلقتان على الجدار .

- أيمكن أن أراها ؟

- أصعد ...

وفتحت له الباب المفضي الى الخارج الى درج متعرج، ذلك أن البناء كان قديماً . غير أنها ظلت هي في الأسفل. ونادى،حالما صار في منتصف المسافة :

- مارت !

- ماذا ؟

- الا تصعدين ؟

- يجب أن أسهر على المتجر ...

- سيسهر وحده بنفسه على نفسه !

ولم تلح. ومع ذلك فقد كان هنالك قدر كاف من التوتر المشحون في هذا الحديث القصير . وعندما رآها تبلغ صحن الدرج عند الغرفة، لاحظ أنها شاحبة وأنها تشيح بنظرها عنه.

وقالت وهي تدفع أحد الأبواب

ـ كتبي هنا .

غرفة غير بهيجة، مطلة على الفناء الداخلي. وسرير من خشب الجوز. وخزانة لها مرآة. ومغسلة من دون ماء جار. وفوق السرير، صورتان فوتوغرافيتان مكبرتان تظاهر بأنه لم يلحظهما .

وبالمقابل، فوق عدد من الرفوف، ثلاثمائة أو أربعمائة كتاب قد جلّدتها بأقمشة ملونة. لم يشأ أن ينظر الى غطاء السرير المطرز والمبطن، لم يكن يرى إلاها، وبياضها الساطع.

ونطقت مارت :

ـ هذا هو

كانت خائفة، وكان يعرف ذلك. لم تكن تملك الجرأة على مغادرة ملجأ الباب المنفرج.

وأكد من دون أن يعرف ماذا يقول :

ـ فيه ألفة صميمية...

ـ نعم، أليس كذلك ؟

كان صوتها ينبض سخرية

ـ لا أتذكر هذه الغرفة ...

ـ قبل موت أمي، كنت أنام في الطابق الأعلى ... فلا يمكن أن تكون عرفتها .

عندما رن جرس انفتاح باب المتجر نزعت مارت شفتيها الملتصقتين بشفتي رونيه .

قالت :

ـ هنالك أحد .

إلا أنها لم تفعل شيئاً لتفلت من عناقه. وقبلت بالـ «سيّان» التي أجابها بها .

وأخذ السيد سوبيرو ينظر فيما حوله، في المتجر، متجنباً أن يقترب من الباب الذي لا يفضي الا الى الدرج والذي بقي منفرجاً . وآثر أن يدخل الى الورشة، حيث جلس بمواجهة العجوز دوني، الأحدب، الذي كان قد حافظ على عادته القديمة في استعمال المضغة.

وسأل سوبيرو :

- هل رحل ؟

دوني،اضافة لمضغته، كان في فمه مسامير صغيرة يسحبها واحداً واحداً ليدقها في نعل. واقتصر على ان يومئ برأسه نفياً. لولا ان تعبير وجهه كان ماكراً لدرجة بحيث ان سوبيرو كان الأول في الشروع بأن يغمز بعينه .

وفعل دوني مثله. ثم شرق بأنفه يشم أنفاس معلّمه وغمز سوبيرو بعينه مجدداً، فهو يعرف ما الذي كان يعنيه ذلك. كانا شريكين قديمين في التواطؤ. وقد انقضت أربعون سنة ولعبتهما الصغيرة تلك مستمرة. وسحب سوبيرو من جيبه زجاجة، شبيهة بتلك التي تستخدم في الصيدليات ومدها لصانعه

- بصحتك يا معلمي !

كانت النافذة تطل على باحة داخلية مهجورة. وقد تدلت جلود من السقف. ومسح الأحدب فمه، وأعاد الزجاجة فارغة وفتح النافذة، على سبيل العادة، اذ كان يعرف أن الغرفة الآن باتت تشيع فيها رائحة كحول العرعر .

وسأل سوبيرو

- أتعتقد أن الأمر قد تم؟

ـ هذه المرة،نعم ...

كانا في عمر واحد. وقد بدأا معاً، في هذا المنزل، تزوج سوبيرو، هو، ابنة صاحبه، الأمر الذي جعل منه رب عمل، في حين ان الأحدب بقي يعيش منذ أربعين عاماً حياته المتوحدة في نفس الركن.

ليس وحيداً دائماً، ذلك أنه قبل عشر سنوات، كان هنالك عمال يبلغ عددهم حتى العشرة.

وغمغم سوبيرو :

ـ مظهره هكذا، لكن أعتقد أنه شخص طيب ...

ـ لا يمنع أنه ليس هو من سيمسك بسكين حذاء، أليس كذلك ؟

ولم يكن في الملاحظة مايرمي الى أية إساءة. فقد كان كلاهما يعرف أنهما لم يعد لهما وجود، فهما في هذه الدنيا اشبه بقطع اثرية عائدة لمتحف.

ـ سمعتهما يتكلمان البارحة... وكان السيد الشاب يتحدث عن تنوير الواجهة أكثر، وتغيير شكلها ...

ـ قل يا دوني ... كم معك الآن من مدخرات ؟

ـ أودعتها كلها مقابل ريع يدفع لي طالما أنا حي. وعندما أريد ذلك سأتلقى عائداً سنوياً يبلغ اثني عشر الف فرنك.

ـ وماذا تنتظر ؟

ـ نفس ما تنتظره أنت.

وصمتا لحظة. فقد سمعا صوت شيء يسقط فوق رأسيهما، ورغماً عنه، فقد بدا على سوبيرو شيء من الضيق.

ـ إنها الحياة يا معلمي.

- وما شأنك أنت يا أحدب ؟
- أقول لك فقط إنها الحياة .
- أو تعرفها أنت ؟
- بلى أعرفها !

ثم خطوات على الدرج . وعندئذ، هذا وذاك دب فيهما الذعر. ودمدم دوني في حلقه :

- ينبغي أن تذهب لعندهما ...
- وكيف سأبدو ؟
- صدقني... ذلك أدعى للحذر ...

كان سوبيرو ممسكاً حتى تلك اللحظة بالزجاجة الصغيرة في يده. كان باقياً في قاعها بقية مبهمة من المرعر. فابتلعها، ودخل الى المتجر الذي دخله مارت ورونيه لتوهما من ناحيتهما .

وقال تاجر الأحذية :

- أكنتما فوق ؟
- أردت مشاهدة مكتبة مارت .

لاحت مارت شاحبة اللون وعلى وجهها بقع حمراء.

وبت العجوز قائلاً، عن مبدأ .

- يجب ألا يترك المتجر أبداً وحده .
- كان رونيه يريد بأي شكل رؤية ...

وكان الأب هو الذي يشيح بوجهه جانباً .

- سيد سوبيرو .

اتسم صوت دو ريتر برنة رسمية...

- يا فتاي ؟
- يجب أن أكلمك... أنا ومارت جرى بيننا حديث.. حديث..

- أنا مصغ اليك ...
- لا ا مسأتي لرؤيتك مرة أخرى... الأمر هام جداً ... وحاسم...
ولم يكن سوبيرو المسكين يجرؤ على النظر الى ابنته التي بدورها لم تكن تجرؤ على النظر اليه. وكان رونيه ومارت يقفان أبعد ما يمكن أحدهما عن الآخر .
ونطق دو ريتر
- سأحضر اليوم بعد الظهر اذا سمحت .
- تحت تصرفك ...
لاح على مارت وكأنها مريضة . وانهمكت، تظاهرا بالتماسك، ترتب علب الأحذية، بحركات لاعب خفة، فجعلت عموداً كاملاً منها يسقط .
- الساعة الثالثة؟ أيناسبك ذلك ؟
وكان دو ريتر يقولها وكأنه يتكلم عن موعد نزال. وفتحت مارت باب المتجر وأخذت تبدل في واجهة العرض الخارجية الأخفاف من مكانها .
- معلوم يا صغيري رونيه .
- الى اللقاء يا سيدي العزيز ...
وكان الرجل العجوز مستعداً لأن يعطي كل شيء على ان يدعى لتناول الغداء في مكان آخر . لكن لم يحدث ان دعي يوماً الى غداء. وليته فقط كان بمقدوره، كما في بداياته، ان يأكل في الورشة، مع الأحدب الذي كان يحضر معه نصف زجاجته من النبيذ وأغذية أكله .
وهو كذلك لم يجرؤ على الصعود الى الطابق الأول، والدخول الى غرفة مارت. وكان يحس رغماً عنه، لكونه رجلاً،

بشيء من سخرية صغيرة لفكرة أن ابنته قد بلغت الثامنة والثلاثين .

وظلت لا تنظر اليه . تشغل نفسها . وتقول :

- يجب قطعاً تبديل العرض .

- ولكنك قد غيرته في الأسبوع الماضي !

- سوى أنه، الآن، قد جاءت العطلة الصيفية... وينبغي عرض أحذية المشي، والاستحمام في البحر، و....

- سأقوم بدورة ... أنا عائد حالاً ...

لن تجرؤ على قول أي شيء، حول هذه النزهة الإضافية، بشأن كأس العرعر الصغير ذاك الذي ذهب يشربه بصورة إضافية .

أما بالنسبة لـ : دو ريتر فقد أعلن في مكتب تحرير الجريدة وعليه سيماء من يهزل :

- هذه المرة أيها السادة، أعتقد أنني سأتزوج! وتوجب على ليا أن تقرأ الطالع في ورق اللعب، بصحبة المؤجرة التي لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد. فهي لم تكن تلبس الا للخروج، ولكنها عندئذ كانت تستعرض في فساتين باذخة توصي عليها من باريس .

وقالت :

- ضربك، آ؟

فتجيب الأخرى برؤوس شفاهها .

- لا، أبداً ...

وتسكب كل واحدة فيرموث للأخرى في كأسها، وتشعلان سيكارات شقراء.

- ٧ -

كانت الساعة هي الثانية تقريباً عندما صفق صندوق البريد، بحركة يستعيدها، مع استعادته طريقة انتظاره ذاتها وهو يتطلع الى نهاية الشارع. وكان عادة يسمع باب المطبخ أول الأمر يفتح ويغلق. ولكن في هذه المرة صدر صوت من الطابق الأول :

- هلا فتحت يا أوغستين ؟

ثم صمت، مدة لابأس بها. وكاد دو ريتر أن يضغط زر الجرس، وأخيراً تدحرجت خطوات على الدرج وفتحت أمه الباب وهي تختبئ خلف الضلفة.

وقالت :

- أهذا أنت ؟

كان يتلامح دائماً لديها، عندما يصل هو على حين غرة، ظل من خشية. وما كانت لتعترف بذلك أبداً، حتى في أعمق

مكنونات سرها، ومع ذلك فقد أخذت نظرتها تفتش عن شيء تتكئ عليه.

- لا تكترث يا رونيه. أترين يا أوغستين كم هو لطف منه!..

وكانت الآنسة العجوز قد أسرجت نفسها للخروج، ثلاثة صفوف من حجارة سيج سوداء حول العنق، والقبعة عريضة الحواف مزينة بعيدان صفائح دقيقة سوداء، وقالت لـ : دو ريتر بإهمال، صباح الخير، وظلت واقفة وسط غرفة الطعام ومظلتها في يدها.

وأوضحت السيدة شوفالييه الأمر :

- تخيل يا رونيه انها دائماً الملهاة ذاتها... إذ يجب ان نذهب الى المستشفى لرؤية راهبة كانت عرفتها أوغستين فيما مضى... كنت آخذة في ارتداء ملابسي... إه! حسناً، فهي مقابل كل ذهب العالم ما كانت لتفتح الباب.

وقالت الآنسة العجوز :

- الساعة هي الثانية. انت لا تجهزين ابداً...

- لأن علي أن أرفع أولاً ما على المائدة وأن أقوم بجلي الأواني !... ألا ترغب بتناول شيء يا رونيه ؟

- شكراً... قدمت لأخبرك بنبأ، نبأ كبير...

لكن لهجة الصوت لم تكن متناغمة مع فحوى الكلمات. وبذل الجهد مع ذلك ليبدو غامضاً ومتهكماً.

- افطني بمفردك لما قررت.

- هل سترحل مجدداً ؟

وآثر الا يحاول أن يميز ما اذا كان يشوب ارتياح صوت أمه

- لا. سأتزوج.

قال ذلك كما لو أن هذه الكلمات من شأنها ولابد أن تثير آلياً الإعجاب والحماسة. ولدهشته، قالت السيدة شوفالييه بزفرة :

- مع تلك المرأة ؟

كانت في التنورة التحتية التي تُلبس تحت الفستان أو الثوب. والمانس العجوز ينفد صبرها، مزروعة كالبرج في وسط الغرفة.

- أية امرأة تقصدين ؟

- تلك التي جئت الى المدينة معها. كل الناس مطلعون. هذا، كان جديراً بأمه فعلاً. فحتى ذلك الوقت لم تكن قد قالت شيئاً! استقبلت ابنها بابتسامات وكلمات ودودة، لكن بنفس الوقت كانت تجري تحقيقاً وتأخذ علماً بماضي ليا.

وردّ على كلامها :

- الأمر غير متعلق بتلك الفتاة. سأتزوج مارت.

- مارت سوبيرو ؟

لا حماسة، مبتوت بذلك. بل على العكس، زفرة أخرى :

- أتمنى أن ينجح ذلك بالنسبة لكليكما...

ولكنها لم تكن تؤمن بما قالت. وأخذت تنظر الى ساعة الجدار. فقد كانت على عجلة لأن تذهب وتضع فستانها.

- أتظن أنك في عمرك ستفلح بأن تستقر وتثبت ؟

- فكرت جيداً بالأمر...

- ومارت المسكينة، أليست خائفة ؟

وفضل أن يمضي، تاركاً للمرأتين أن تستأنفا خصامهما بانتظار أن تذهبا لرؤية صديقتهما في المستشفى. وقبل أن

يوافي موعده الساعة الثالثة في متجر الأحذية، كاد أن يذهب ليعلن لليا الخبر الرسمي، ولكن ذلك كان وسيلة أخرى لكي يتلقى دوشاً جديداً ولم يكن بحاجة الى ذلك. فضل أن يتنزه وحيداً، واختار الرصيف الظليل، فالشمس أخذت تصبح حارة.

كان على وشك أن يشتري، بسبب المبدأ، قفازات بيضاء ولكنه اكتفى بباقة ورود بيضاء ضخمة.

حين دفع الباب الزجاجي، كانت مارت هي الموجودة في المخزن وعبثاً بحث دو ريتر عن أبيها بعينيه.

وسأل وهو يضع الورود على منبر المحاسبة،

- أهو ينتظرني في غرفة الطعام ؟ ألم يقل شيئاً ؟

- ذهب يتمشى...

- ولكنها الثالثة...

وأخذت تتكلم بصوت عذب جداً، يذوب في الحلق، فيه أسى:

- أنا من طلبت إليه أن يخرج

- كان بيننا بكل الأحوال موعد...

جعله ذلك كله في مزاج سيء. فهو لم يكن يحب أن يتعرض لما يعيق.

- فضلت أن نتمكن من أن نتبادل الكلام معاً كلانا يا رونيه. اجلس، أتريد ؟

كانت مخطئة باتخاذها هذه السيماء الحزينة، وأن تشرع بابتسامة طابعها الإذعان، فهي بذلك كانت تبدو أكثر عنوسة.

- لا أضمر أي وغر نحوك، هذا مايجب أن تعرفه قبل كل شيء. أنا سعيدة مما حدث. ولا آسف على شيء، حتى لو ترتبت عليه آثار تتلوه...

كان لا يطيق مثل هذه المواقف. وكان لا يطيق بخاصة أن يطرأ نكوص على ماكان قد قرر. وصدرت عنه رغماً عن ارادته، حركة نفاد صبر...

- لا تغضب...

كانت متكئة بمرفقيها على منبر المحاسبة ويداها مضمومتان معاً، وصوتها أكثر فأكثر عذوبة.

- لقد أمعنت التفكير طويلاً... كدنا، كلانا معاً، نقدم على حماقة رهيبة...

تحت وطأة الغيظ، ربما الحنق الشديد، الحر، كل شيء، أحس رونيه عينيه تخزانه، وفي تلك اللحظات يكفي أدنى جهد يبذل لتطفر الدموع من عينيه :

وتمتم :

- مارت...

كانت الدموع فيهما، وكان يعرف ذلك. وطاش صواب مارت، فأشاحت بوجهها.

- رونيه !.. أتوسل اليك.. دع لي القوة لأكلمك.. أنت لم تخلق لتعيش بين جدران هذا المتجر الأربعة... ولم تخلق لتتزوج امرأة مثلي.. فأنت عرفت طعم الحياة بأكثر من ذلك، وسافرت كثيراً.. في هذه الآونة، استحوذت عليك الذكريات واستسلمت للتأثر، ولكن بعد شهر، بعد عام...

قرب كرسيه، وأمسك بلهفة يدي مارت واحتفظ بهما بين يديه، في حين كانت نظرته تحدق بالأرض.

- أكرر لك أنني لا أضمر لك أي وغر. كنت صادقاً. لكن هذا لا يمنع أننا كنا سنكون تعساء كلينا، وبخاصة أنت. وذات

يوم، تكون سئمت وسترحل...

كان همساً ناعماً، ناعم مثل اليدين الساخنتين والطريتين اللتين كان يمسك بهما بين يديه

وقال مفصلاً كلماته ببطء وهو مايزال ينظر الى الأرض.

- أنت لا تحبينني

- رونيه ! كيف تجرؤ على القول...

- إذن، ماعدت أفهم. إما انك أنت من لا يفهم شيئاً، ولم تفهمي شيئاً في أي يوم.

ونهض، وأفلت يديها، ومشى في المتجر بخطى واسعة، متكلماً بصوت قاطع، أحياناً أصم، وأحياناً حاد.

- لا. لم تفهمي شيئاً، وإلا...

وضرب بعنف منبر المحاسبة المصنوع من خشب أسود.

- انقضت عشرون، اثنتان وعشرون سنة، وأنا أسافر من مكان لآخر، يظل يحدوني الأمل في أن أستقر أخيراً في مكان...

- أنت ترى !

- لا أبداً، لست أرى، ذلك أن ما أبحث عنه، بالضبط، ما بحثت عنه دائماً، حتى عندما كنت فتى صغيراً، إنما هو ركن لي...حيثما كنت، وطوال عمري، عانيت الإحساس بأنني غريب... اليوم، كان يبدو لي..

- رونيه ! عفواً...

- والآن، فات الأوان مادمت لم تفهمي. كنت تخليت عن كل شيء، ونبذت مطامحي. ومن أجلك أنت، أصبحت محرراً صغيراً طيباً في جريدة المونيتور وفي كل مساء، في المقهى،

كنت التقي مجدداً أولئك الأغبياء... أعدت لنفسي روح رجل شاب... وكنت أهرع الى هنا كالمجنون... وعندما كنت أصل باكراً أكثر مما يجب، أنتظر عند زاوية الشارع ونظرتي منحرفة ومثبتة على ساعة القديس جاك... وهذا اليوم بعض الظهر، خذي هذه مثلاً، ترددت في شراء قفازين أبيضين، بقصد أن أبقى ملتزماً التقاليد الأكثر إثارة للسخرية! وها أنت...

كانت الدموع مستمرة في انبجاسها. وكان يتماسك ومارت يعتريها جنون، تمر الى الجانب الآخر من منصة المحاسبة، وتحاول ايقاف مشيته المتقطعة.

- رونيه !... سامحني... إنه من أجلك إذا...

- من أجل رميي مجدداً الى تشردي، هكذا؟ أتعرفين فقط ماهي حياتي ؟ الفنادق، الغرف المفروشة، محطات القطار، مكاتب البريد المنتظر...

كانت شفتاه ترتعشان. وأحياناً كانت في صوته رنات منخفضة القرار تذهب مباشرة الى القلب.

- سأروي لك ذات يوم. أو بالأحرى لا، مادام...

- سنبقى أصدقاء يا رونيه.

- لا. سأرحل الليلة مجدداً...

- الى أين ؟..

- لا أدري. الى أفريقيا، الى استراليا...

وبكى حقاً. تألم فعلاً. كان حلقه يغص لفكرة المصير التي كان يستحضرها، لما كانت عليه حياته حتى هذا الحين.

- لم تفهمي يوماً اي شيء، قولة الحق. لا ! الآن فقط أدرك ذلك. وقد اعتقدت، مثلك مثل الآخرين أنني شخص أهوج،

نصف مجنون، نوع من مغامر. لكن لماذا ؟ أسألك ذلك. فأنت لا تعرفين شيئاً عن الأمر! إنه لسبب بسيط جداً بكل الأحوال: لأنني، ومنذ كنت فتى صغيراً، أدركت أنني لست في مكاني الصحيح... هل تفهمين؟ لا! بل كنت في وسط ضيق التفكير وقد تمردت ضد التفاهات التي كانت تحيط بي... آ! خالاتي وأخوالي..

كان يخلط كل شيء. وشعر بالشفقة على نفسه. بينما مارت تلقي نظرة حزينة حولها

وتنهدت :

- وهنا ؟

- هنا، قبل قليل فقط كان مرفأ الأمان... كنت أعتقد... أتخيل... عندما باحت لي الخالة ماتيلد ذات مساء بأنه بينما كنت أطوف عبر العالم، فإن فتاة شابة لم تكف عن أن تفكر بي، أحسست أن...

لا! فالآن وقد انتهى ذلك فإنه يفضل ألا يفكر بكل هذه التفاصيل. وكان ثمت أخرى غيرها. حتى أنه كسر عصاه ذات المقبض الذهبي وهي متينة، الى حد ان يديه آلمتاه. ألم في اليدين، وحمى في الراس، سخونة في الجفنين بخاصة، فقد انتهى الأمر بأنهما أخذا ينتحبان واحدهما بين ذراعي الآخر، وعندما وصل العجوز، فإنه فاجأهما وهما في هذه الوضعية.

وهتفت مارت وهي تندفع نحو أبيها :

- أبي !...

ولم يعد هو يدري شيئاً من أمره : لم يكن يطلب إلا أن يفهم.

ـ إنني أتزوج رونيه، تم ترتيب ذلك.. ليتك تعرف يا أبي...

وهي اذ اطمأنت، فقد أخذت تشم الورود البيضاء، بينما خطان مبللان مايزالان يلمعان على خديها.

ـ أعتقد أنني يجب أن أهنئكما يا ولدي. وربما و... مارأيك بأ ن نتعانق ؟..

وقد فعل. واستدار ناحية مارت.

ـ وماذا اذا ذهبت لإحضار مدقة كي نشرب احتفالاً بذلك؟

ـ ليس عرعاراً يا أبي، شمبانيا.

وأخذت نقوداً من درج الصندوق، وجرت الى أقرب بقالية. وكانا قد استقرا في غرفة الطعام.

واقترح سوبيرو :

ـ يجب أن نحمل كأساً الى الأحدب...

أخيراً، انتهى ذلك! وقد تقرركل شيء. وأول أمر حرص رونيه على القيام به، حالما أصبح خارجاً، كان أن يدخل الى مقهى وأن يتناول كأساً كبيراً من الجعة. وأشاح بوجهه حينما رأى نفسه في المرآة.

كان يجب أن يهدئ نفسه، ويترك تلك الحمى التي تدفع الحمرة الى وجنتيه تمر، ويدع كذلك شفتيه تشحبان بعدما صارتا داكنتي الحمرة لفرط ما انسحقتا على أسنان مارت التي لم تكن تعرف كيف تقبل مكتفية بترك فمها منفرجاً.

وعلى وجه الإجمال مايزال الأوان ملائماً للرحيل. وهذا ماكان يفكر فيه. فليا لم تفقد مكانها في كليرمون. وهي تربح هناك مايكفي من المال كي يعيشا ناعمي البال كلاهما. وسيتبين فريدو في نهاية المطاف أنه ليس هاوياً...

لكن لماذا لم يكن قادراً على فعل ذلك؟ كان يبدو له أنه أبداً بعد اليوم لن يغادر المدينة، حيث يستطيع، وطوال ساعات، أن يدور حول نفسه في الشوارع. وفي كل مكان، كان يلتقي مجدداً ذكريات منسية، مثل ساحة سوق الجبن، وراء كنيسة القديس ـ جاك، وهي ساحة صغيرة، تظللها أشجار عالية، حيث لا يرى المرء فيها نهاراً الا صقائل منصات مفكوكة، ولكن حيث الرائحة تفصح بما يكفي عن قدوم فلاحات طيبات في الصباح الباكر لبيع أجبانهن...

كان ذلك على بعد عشرة أمتار من البوابة ذات الطراز القوطي للكنيسة، وعندما يقترب المرء منها، حوالي الساعة الرابعة فإنه يتلقى لفحاً من بخور الصلاة المريمية أو صلاة المساء...

وقرر أن يعلم الخالة ماتيلد. وكان ينبغي ان يذهب لرؤيتها في متجر لوازم الخياطة، وهو متجر لم يحدث أن رأى مثيلاً له في كل أسفاره.

فهو قد فتح ثلاث واجهات عرض على الشارع الأكثر نشاطاً تجارياً. خشبياته كانت معتمة، لكن ملمّعة، والمرايا نظيفة نظافة شديدة الحرص. وكانت قضبان الباب الزجاجي النحاسية هي الأكثر إشعاعاً في كل المدينة.

في الداخل، يلفي المرء نفسه وقد ولج عالماً جديداً، على درجة من الهدوء بحيث يبدو وكأنه نفي لكل حياة. ولم تكن الستائر تسمح بالدخول الا لذرات الشمس. حرائر، وأقطان، على شكل شلل أو بكرات، جميعها مرتبة في علب طويلة من خشب السنديان الملمّع.

كن ثلاث آنسات مثل ماتيلد ينتظرن الزبونات، انما لا يرى المرء أبداً الا واحدة وحيدة هي التي تتقدم منك، في حين تبقى الاثنتان الأخريان ساكتتين، ترتديان الأسود، بحيث انهما جزء من الديكور. وصوت وحيد : هو صوت الرنة التي تحدثها عاملة الصندوق للإعلان عن وصول زبونة. وكان ذلك يشبه صوت صندوق تسجيل :

- رونيه...

امر مختلف أن يقابل ماتيلد هنا حيث كان قد جاء كثيراً جداً في طفولته، مع أمه. كانت ترجع اليه نفحات من الزمن الذي لم يكن يستطيع فيه أن يرى ماوراء المنصة والذي كانت الأنسة العجوزالتي تدير المخزن تأخذه فيه وهي تقبله، الى غرفة استقبال صغيرة كي تعطيه لوح شوكولا.

- طاب يومك يا خالتي !

وقبلها، أمام الأخريات اللواتي بقين ساكنات بلصق الرفوف. وقد احمر وجهها. وأوضحت :

- إنه رونيه، شوفالييه الصغير... أتتذكرن ؟ ابن تيريز...

وتبتسم له بارتباك وخيبة.

- هل أنت مسرور يا رونيه ؟ نحن جميعاً نقرأ مقالاتك في المونيتور... يجب مع ذلك أن أقول هذا لك... يوجد منها ما ليس اخلاقياً جداً...

- أتيت لأنبئك بخبر كبير يا خالتي

- هل ستتزوج ؟

هي، فطنت للحقيقة وحدها! ولم يبد عليها لا غضب ولا قلق للخبر ! بل أخذت تنظر اليه بحدقتين كلهما فرح.

- هل كلمت والد مارت ؟

- سيتم الزواج خلال ثلاثة أسابيع...

ميّز فقط رجلاً أصلع قليلاً يرتدي الأسود.

- الا تتذكر السيد أرمان.. لم يكن يكبرك إلا بخمسة أعوام... إنه ابن أخت الآنسة.. ومنذ وفاتها، فهو الذي تولى ادارة تجارة المحل...

- تشرفنا سيدي...

- إنك سافرت كثيراً، وفقاً للمقالات التي أقرؤها... ليتك تعرف كم أحسدك !...

فليكن ! فليكن ! فليكن ! سيصبح مثل السيد أرمان! وسيكون عضواً في لجان. وربما رئيساً لشيء ما.

وسألته ليا حينما التقاها عند منتصف الليل :

- ماذا بك ؟

- لاشيء.

- أما زلت ستتزوج.

- أكثر من أي وقت آخر.

- اتريد أن أقول لك ؟

- غردي بكل الأحوال

- إنك ترتكب نذالة صغيرة...

- إلّم تكن الا صغيرة، فما الأهمية؟

- وربما كبيرة.

- غيرى ؟

- إنك لا تستحق مني ذلك !... التقاني البير...

- وماذا بعد ؟

ـ طبعاً، الأمر يعود... لكنه هذه المرة لن يقول شيئاً لزوجته... أوحيت له وجملته يعتقد بأنني قد رجعت بسببه... تهكم، لكن من دون قناعة، لأن ذلك لم يشعره بأي سرور.

ـ أليس عندك قلم أحمر ؟

وذهبت تحضر قلماً من غرفتها، وانكبا مجدداً على منصة المحاسبة.

ـ تفهمين يا مارت ؟ إنني سألغي خزانة العرض سيئة الذوق هذه. وأقيم مكانها مدخلاً مهيباً يشغل عرض الواجهة بالكامل.

ويخط بالقلم ليوضح بالصورة فكرته.

ـ أربعة أمثال المصابيح الكهربائية الموجودة الآن...

ولافتة فوق المدخل بالنيون تعلن عن رخص دائمة...

ولم يكن قد حدث لسوبيرو طوال حياته أن شعر بهدأة بال مثل تلك. اذ كان بمقدوره أن يخرج عشر مرات في اليوم من المحل، من دون أن يمشي على رؤوس أصابعه، ومن دون أن يلجأ الى التحايل ليكتم صوت باب المدخل ! واذا ما عاد وهو يمشي مشية رخوة بعض الشيء فلم يكن أحد يقول له أي شيء. والأمر هو ان أحداً لم يكن يلاحظه لا أكثر.

وكانت مارت التي تملك حساً بالمال تعترض :

ـ سيكلف ذلك غالياً.

ـ ولكن العملية تستحق. ويكفي لذلك بيع أحد المنازل التي لا تفيدنا اليوم بشيء.

ـ يبدو أنه ليس الوقت الأنسب...

- يظل ذلك الوقت الأنسب إذا ماوجدنا الراغب... سأتولى الإعلان عنه في المونيتور...

وذات يوم بعد الظهر، وجد أمه في المتجر، وبدا عليها أكثر من أية مرة أخرى الخوف، وهي تراه يدخل.

وسارعت توضح

- كنت مارة مجرد مرور... وأحببت أن أسلم على مارت... يبدو أن لديكما عدداً من المشاريع...

ولم توفق في إخفاء مرارتها. ألم يكن حلم حياتها كلها أن تملك محلاً تجارياً صغيراً خاصاً بها فعلاً ؟ وهاهو ابنها، بعد غيبة اثنين وعشرين عاماً..

- إنني أترككما... يجب أن أذهب الى المستشفى..

وسأل رونيه :

- ماذا قالت ؟

- إنه يجب ان أمسك جيداً بك. فهي غير واثقة ! إنها لا تدري...

وأجاب بجد بالغ مكرراً :

- لا. إنها لا تعرف.

مع النبرات منخفضة القرار التي كان يعرف تأثيرها!

- في الحياة ليس إلا أهلنا في العجز عن فهمنا... وذلك مأسوي !.. ففي حالتي...

- يا مسكيني يا رونيه !

وأوضح كل شيء ! انه كان ضحية ! وأنه كان يمكن أن يصبح فتى صغيراً طيباً لولا أن الحياة قذفت به في لجة المغامرة...

ـ أنت تفهمينني !.. لكن تذكري... في تلك الفترة، من الذي كان قادراً على ان يفهمني ؟

كان ذلك سهلاً عليه لأنه لم يكن بحاجة لأن يكذب الا نصف، نصف. وانتهى الأمر به الى الا يكذب البتة. فقد أخذ يتكلم عن نفور روحه من التفاهة، تفاهة النفس، وتفاهة الهموم الصغيرة الخسيسة! ـ وعن رغبته اللاذعة بحياة أعرض...

ـ هذه لا تتاح لقياها الا لاثنين يكونان معاً يا مارت... سأروي لك يوماً عن كل خيباتي وتجاربي التي آلت الى نهايات جديرة بالرثاء... للأسف ! فأنت لا تتزوجين قديساً يا مارت.

ـ ولست راغبة بأن أتزوج من قديس.

وكانت تبقى ساكتة، مبتسمة. فقد استردت ثقتها. بل تولد لديها الانطباع بأنها تعرفه خيراً مما يعرف هو نفسه.

ـ في حقيقة الأمر، انت بحاجة لكبح جماحك... إنك تحتاج الى شخص مثلي، بورجوازية صغيرة تمنعك عن الإقدام على حماقات...

كانت تصدقه ! أقل منها !...

كانت منشغلة بإعداد جهاز عرسها، وتوصي على فساتين. وقد تم تعليق إعلان الزواج في دار البلدية وفي كنيسة القديس جاك التي كانت مارت تتبع لأبرشيتها.

نهضت السقائل أمام خزانة واجهة العرض لأن مارت ارادت لأعمال التحويل ان تكون أمراً تم عند حلول يوم زواجها. وأخذ العمال يجلبون الواح الزجاج والمرايا موضوعة في صناديق من خشب.

وكانت ليا تلح عليه في الصباح وهي تقدم لرونيه إفطاره في السرير :

- أحقاً لا تريدني أن أرحل ؟ يبدو لي أنك في الوسط الذي يناسبك لدرجة...

- غبية !

لم يعد يعرف بالضبط متى كان يكذب ومتى يقول الحقيقة. ولم يكن يريد أن يعرف، كان سعيداً، وفي الصباح، عندما تحوم المرأتان حول سريره وهما في الرداء المنزلي، ثم عندما يكتب مقالته وهو في منامته أو في الرداء الذي يلبسه فوق منامته، فتبتعدان على رؤوس أصابعهما لتذهبا وتتهامسا في غرفة الحمام. وكان يحب الأمر عندما تبدو المؤجرة بذلك المظهر المهمل الهندام، وقلة الحشمة على وساخة تلك، بحيث يحدث له خلال مروره أن ينقف بسبابته نهدها الضخم.

وكانت تضحك لذلك ! لم تكن تجد رداً آخر عليه !

ثم، بعد الظهر ! مع مارت، في قاع المتجر، الذي كانت تجعله الأخشاب المنصوبة أمام الواجهة أكثر عتمة أيضاً، كان يضع الحسابات. وعلم أن سوبيرو العجوز كان قد حقق ثروة تتجاوز خمسمائة ألف فرنك، لا عن طريق تجارته في الأحذية بقدر ما تم له ذلك لأنه قبل عشرين عاماً ابتاع بأرباحه الأولى ثلاثة منازل لم تكن في ذلك الزمان تساوي شيئاً كثيراً.

وكان الأحدب يكن المحبة له، ويجهل لماذا، ربما لأنه اعتاد أن يحضر له معه تبغاً يمضغ. وكان في جيبه دائماً شيء يهديه لكل واحد. وقد قدم لمارت نفس الساعة السوار التي

كان أهدى أمه مثلها. أما بالنسبة لسوبيرو، فهو قد تبعه ذات يوم الى مشرب مخز يذهب هذا الأخير اليه ليشرب فيه المرعار.

- بصحتك أيها الأب ! هذا على الأقل هو شراب للرجال!... أتعرف أن المرعار هو الكحول الأكثر عافية؟...

- كان يجب أن تقول ذلك لزوجتي المسكينة... لن أتكلم عنها بالسوء، نظراً لأنها ذهبت الى رحمة ربها.. لكن هاقد مضى علي أربعون عاماً وأنا مضطر للاختباء!..

- ستأتي ساعتك... وبعد أن نتزوج، سأستقدم لك في كل يوم احد مدقة كبيرة من المرعار المعتق، وستتمكن من التمتع بتذوقه بكل بال مرتاح.

- أوتعتقد أن مارت ؟...

- نعم طبعاً ! معلوم !

وعندما يذهب الى المونيتور، كان يفتش بصورة جهيرة عن البرقيات الخاصة بالشؤون المالية. ذلك أنه كان لديه نقود ! كان يملك رؤوس أموال.

وقال ذات مساء لليا :

- سأحتاج الى خمسة آلاف فرنك.

- لزواجك ؟

- أيتها البلهاء ! ألن تعود على اثنينا المنفعة منه ؟

- ومن أين تريدني أن أحصل عليها ؟

- وألبير ؟

زوجته وشأنها اذا وقع عليها أن تعاني، وحولها أطفالها الثلاثة، من ضجر الانتظار وإن لم تعد تملك الوسيلة لاجتذابه

الى غرفة التدفئة! كان يعرف مايفعل. وينظر الى نفسه باعتبار نفسه استراتيجياً كبيراً.

- سترين يا ليا... في ظرف بضعة أسابيع سنصبح أثرياء.

- نحن ؟

- أقول : نحن، نعم. وإذا لم تفهمي فأنت وشأنك.

- بكل الأحوال، فما أعرفه جيداً هو أن خير ما أفعله هو أن أعود الى كليرمون...

ومن ناحية أخرى فهي لم تكن تذهب ! بل مستمرة بإداء دور وصيفة الغرفة، تتولى فرز ملابسه، وتسلمها للتي تقوم بغسلها وكيها، وأحياناً، عندما لا يكون هنا، تعيد خياطة أزرار القمصان له التي تكون انقطعت.

ماذا كانت تأمل ؟ لم يكن دو ريتر يعرف شيئاً عن ذلك. كان حازماً أمره على الا يدعها ترحل. وهو بحاجة لكل أوراقه الرابحة في لعبته. اذ كان قابلاً بأن يربح على لوح جديد، إنما لا يذعن لأن يخسر على الآخر.

- أمعك الخمسة آلاف فرنك التي قلت لك عليها ؟

- سيعطيني إياها غداً أو بعد غد. فهو مضطر لبيع سندات لكي لا تنتبه زوجته للأمر...

الخمسة آلاف فرنك كانت بقصد شراء سيارة، بائعها هو صحفي من جريدة الفازيت.

وحصل عليها. ودار بالسيارة يعرضها في شوارع المدينة. ووصل لعقد مارت، بادي الانشغال :

- بعد خمسة عشر يوماً، نحولها الى سيارة لتسليم البضائع ونشتري واحدة غيرها لنا نحن...

وكانت مع ذلك يعتريها خوف. وتهمس بلهجة لوم سرعان ما تأسف عليها :

- رونيه !

عندئذ، هو، كانت له طريقة خاصة في النظر اليها. ويلوح وكأنه يقول لها :

«وأنت أيضاً! ».

ويعني ذلك ضمناً :

«وأنت أيضاً عازمة على لجمي؟.. ستريدين أن أغوص مجدداً في التفاهة الغبية التي لشدما عانيت منها في طفولتي؟...»

ولم تكن تجرؤ على أن تلح. وكانت تبتسم مثل تلك الابتسامة التي توجه لطفل ماكر يحب العبث.

- افعل مايحلو لك.

هل كانت خائفة ؟ وحدث فعلاً ان طرح دو ريتر السؤال على نفسه. لا، أبداً. اذ كان يغالي في حرصه على أن يسلم لها في كل التفاصيل. وما كان عليها إلا أن تقول كلمة حتى يظهر التأثر عليه. ويبلغ الأمر به أنه لأقل شيء، للاشيء، كانت الدموع تترقرق في عينيه.

- سترين يا مارت... حتى الان، أنا لم أعش... الحياة تبدأ الآن، بالنسبة إلي،بالنسبة إليك....

أما الرجل العجوز، فكان من دون شك يفضل الا يفكر بشيء فهو لم يتمتع يوماً بهذا القدر من الحرية. ولم يكن أحد يسأله الحساب لا عن وقته ولا عن مصروف جيبه. وكان بمقدوره أن يذهب ليشرب كل الأقداح الصغيرة التي يشاء،

ومنذ الرابعة بعد الظهر يغدو نصف نائم.

وكان رونيه يردد :

- يتكلم الأغبياء باحتقار عن المدن الصغيرة! أما أنا وبعدما قمت بعدة دورات حول العالم، فأعرف أنه في المدن الصغيرة إنما تتكدس الثروات... ويا للهدوء فيها... وأية سكينة نفس !...

وظل رغم كل شيء عرضة لقلق، رغم إعلان الزواج المعلق، رغم الإعدادات التي يجري دفعها بنشاط، بما في ذلك بطاقات الدعوة التي وجهت طلبية بها الى النقاش للزواج.

اذ كان أحياناً يتولد الانطباع لديه بأن مارت تنظر اليه بنفس عيني أمه. سوى أن الأمر معها أقل خطورة. باقة بسيطة من أزهار البنفسج كانت تكفي.

وكان يقول :

- كل ثمنها ستة قروش فقط... وهو أرخص ما يمكن من حيث اعتبار الباقات... وأريد أن يكون هذا رمزاً، رمز بساطة حبنا...

وفي كل يوم يجد صيغاً جديدة. وكانت تتردد. وفي لحظة، يفطن مما في عينيها الى جواب ممكن وعندئذ يعرف أي لهجة صوت يجب أن يتخذ، وعلى أي حبل صوتي ينبغي ان يعزف.

- لو كنت جميلة لما علقت بحبك... حصلت على الكثير الكثير من النساء الجميلات في حياتي !... لكن ما من واحدة منهن كانت تتمتع بالقدرة على ان تصبح رفيقة حياة!...

خمس واثنان سبع. وقد حسب ثروة أسرة سوبيرو بسبعمائة فرنك. كان ذلك صحيحاً، إضافة الى ذلك، فتحديث المتجر يمكن أن يستدر ارتفاعاً في الدخل.

- أترين يا مارت، كنت ولدت لأصبح برجوازياً صغيراً مثل

ابيك، مثل أعمامي... واذا ما أصبت بالإحباط منذ البداية، فذلك لأنه كان في روحي قدر فائض من المثالية... وأعرف الآن الى أين يؤدي ذلك.وربما أيضاً ان ذلك عائد الى انني قد باشرت العمل عند الآخرين.. والمدير يمنعني من القدوم الى المكتب وأنا أضع كاسكيت... الا تفهمين ؟

وتهز رأسهاعلامة الإيجاب.

- وفي الأمكنة الأخرى، في المغامرة، ما الذي يجده المرء ؟ المال؟ جاءتني منه مقادير بحيث لا أعرف ماذا أعمل بها ولم يحمل الي ذلك أي فرح... في حين اننا نحن الاثنين...

وكانت تجازف مختبرة :

- لكن في تاهيتي ؟...

- فتيات كن لي اليوم، ولغيري في اليوم التالي. أهذه هي الحياة؟ أليست الحياة بالأحرى هي في أن يتمكن المرء من أن يفكر عالياً بالقرب من رفيقة الحياة؟..

ولم يعد يعرف ان كان يقول الصدق أوكان يمثل دوراً. وتتضاءل قدرته على أن يعرف ذلك بقدر ماكان في كلامه من الاثنين معاً،

- وما يردده :

- المطلوب واللازم، إنما هو الثقة المتبادلة... وليقولوا لي اليوم أي شيء عنك...

وطبعاً، لم يكن يتعرض هو لأي خطر من هذه الناحية! هذا لم يمنعها من أن كانت ترد :

- وأنا أيضاً يا رونيه !

- لابد أنهم يمقتونني، جميعهم، أيا كان عددهم ! فذلك

الذي يعود بعد كل تلك المدة الطويلة... هل تفهمين؟...

- أفهم...

وكانت تداعب له شعره بينما يتخذ هو سيماء من هده التعب.

- الأسبوع القادم يكون كل شيء انتهى. ستكونين لي، الى الأبد...

وتردد هي :

- إلى الأبد...

وكان في صوته بعض من ذلك التشكك الخارق الذي كان يفسد كل العلاقات بين رونيه وأمه.

وعندئذ، يعرف ان عليه أن يلعب اللعبة الكبرى. فتمتلئ عيناه بالدموع. ويبدأ :

- يا صغيرتي مارت، عندما يعرف الإنسان الدنيا ويكون رآها من مسافة مفرطة القرب منه... عندما يكون انطلق من ارض منخفضة جداً وحف بأعلى القمم..

فتهمس له :

- ششت !...

وتتابع مداعبة شعره.

- ٨ -

كان في العربة التي تجرها الخيل، مرتدياً البذلة، وقد وضع على ركبته القبعة العالية، ملامحه أكثر دقة، وأكثر عصبية من المعتاد، وزفرت أمه قائلة :

- يذكرني هذا بجان ابن خالتك قبل عشرين عاماً عندما تزوج... فهو في العربة اعترف فجأة لأمه :

«- أمي، أنا سائر الى الهيكل كمن يمشي الى التعذيب! لم يحدث أن أحببت انطوانيت ولن أحبها أبداً...».

وكان دو ريتر ينظر الى المنازل وهي تتعاقب في الشمس، وتابعت أمه بعد زفرة جديدة:

- للأسف ! لم يكن من ذلك بدّ... قل لي يا رونيه ... معي، يمكنك ان تتكلم بصراحة... اعترف بأنك مرغم على الزواج ...

وهز أول الأمر كتفيه، ثم غضب، وعندما خرجا من العربة في باحة الشرف في البلدية، كانا كلاهما محمرين غضباً . وقد

شكل خمسون شخصاً تقريباً نوعاً من سياج لمشاهدة مرور الزواج. وفي الصف الأول، وقفت ليا، بلياقة كبيرة، ترافقها صاحبة البيت التي وضعت كل أحجارها الكريمة المزيفة على الحرير الأسود لقميصها والتي كانت أخرجت نظارة يدها.

في غرفة عقود الزواج، ولحظة المراسم، انفجرت السيدة شوفالييه بالبكاء، والتفت الجميع ناحيتها، الأمر الذي لم يمنعها من ان تتابع.

واعترفت بين شهقتين لجارة لم تكن تعرفها

- لم يكن باقياً لي غيره .

لدرجة أن دو ريتر، المتوتر، والمنتبه رغماً عنه لما كان يجري وراءه، أخذ يمي بصعوبة مجريات المراسم بحد ذاتها .

زهور كثيرة، ولم تكن مارت بالأبيض وإنّما في ثوب لونه زهر. وتناول موكب الزفاف الغداء في أفضل مطعم وفي الساعة الرابعة كان كل شيء قد انتهى.

حياتهم اليومية كانت محددة. إذ توجد في الطابق الأول من البيت ثلاث غرف وقد اختار دو ريتر أكبرها، ليس له ولزوجته، بل له وحده.

كان بحاجة الى السكينة. فذلك ضروري لعمله. وفي صباح اليوم الأول أحضرت له مارت إفطاره، تماماً كما كان يمكن أن تفعل ليا ذلك . سوى أن مارت كانت مرتدية ثيابها، في ملابس المتجر، وفقاً لعبارتها، أسود وأبيض .

- هل صعدت بالجرائد ؟

كان بحاجة الى عادات، وقد اتخذها منذ البداية. أول الأمر، تسكع في السرير وفي الغرفة. ثم وضع على نفسه ثوباً

لداخل البيت كان اشتراه خصيصاً، ولبس خفين جديدين ونزل، ملقياً نظرة على الشارع، مثرثراً بضع دقائق مع الأحدب، ومبتسماً لمارت التي كانت تقوم بخدمة زبونة.

- سأكتب«ورقتي» .

كان قد تدبر نوعاً من مكتب لنفسه في غرفته، بالقرب من النافذة التي تنفتح على الشارع . كان يرى الناس يمرون على الرصيف المقابل. ويكتب من دون أن يتعجل، بخط منتظم صغير، على ورقة صغيرة كلياً .

اعتباراً من الآن، ستتشابه أيامه قبل الظهر. وبعدها، كان يرتدي ملابسه، وينزل، ويضع قبعته .

- سأمر على الجريدة ...

وكان يمر فعلاً على الجريدة، إنما لبضع ثوان فقط، ويصل بعد ذلك بقليل لعند ليا التي كانت تظهر بعض الدهشة :

- هل آن ؟

- وعدتك بأن آتي لرؤيتك كل يوم ...

ويجلس مستقراً في مقعده الوثير، بعد أن يكون تناول زجاجة الفيرموث من الخزانة، ويبحث عن سكائره .

- مسرور ؟

وهز كتفيه، كأنما ليقول ان المسألة ليست هنا .

وسأل بدوره :

- ألبير ؟

- ما يزال يلاحقني . أكثر فأكثر هوى . لو أردت ... هزة كتفين جديدة. وكأس فيرموث آخر. ومسح شاربيه.

- الى الغد ... حاولي أن تكوني جادة...

وفي الثانية عشرة والنصف، كان يجلس الى الطاولة، في مواجهة سوييرو المجوز . وكان قد أخذ للعمل في البيت خادمة، ومع ذلك فإن مارت كانت لا تكف عن النهوض كي تذهب وتلقي نظرة على المطبخ.

وذات يوم أربعاء، كانوا قد دعوا الخالة ماتيلد لتناول العشاء، على سبيل الشكر على هديتها : طقم لاثني عشر شخصاً من أدوات الطعام من الفضة. وفي اللحظة التي همت بأن تغادر فيها، قال قائل، آلياً :

- إلى الأربعاء المقبل ...

وتم منذئذ وبشكل بديهي إرساء أنها سيكون لها مكانها في البيت كل يوم أربعاء .

وكانت مارت تحب المسرح بجنون. وكان بمقدور دو ريتر أن يحصل على مقاعد بواسطة «المونيتور» . إلا أنه مع ذلك لم يخرج معها الا مرة واحدة في الأسبوع، يوم الجمعة .

وفي الأيام الأخرى، يخرج وحيداً من دون أن يعتذر عن ذلك . وكان يرجع متأخراً، ذلك أنه استمر في أن يلتقي أصحابه في المقاهي . وكان يحمل مفتاحاً. ولم يكن يرى أي ضوء في غرفة زوجته، ولكن حركة خفيفة لا تلبث أن تبين أنها انتظرته .

ولم يقلقه ذلك. اذ لم يحدث أبداً أن طرح يوماً موضوع منوال مختلف للحياة. وما كان أحد ليسمح لنفسه بإبداء ملاحظة حول سلوكه أو أن يطرح سؤالاً . وأقصى الأمر أن مارت كانت تسأله عندما يعود:

- ألست متعباً زيادة ؟

ولم يكن العجوز يقول شيئاً . ولم يعد له حساب كبير فيواسي نفسه عن ذلك بأن يكثر من الخروج بقدر ما يستطيع.

وظهر على وجه دو ريتر أن صحته ليست على ما يرام بالأحرى . وكانت ليا الأولى في ملاحظة الأمر.

- وأنا التي تخيلت أن الزواج سيسمّنك! ... ألا تسير الأمور وفق ماتهوى ؟

- لكن بلى !

كان سيد البيت . يغير شكل المتجر، ويصدر الأوامر للعمال دونما حاجة لأن يكلم مارت أو أباها في الأمر. وفي المونيتور، كان المحررون المساعدون يعتبرونه رجلاً غنياً ويحسدونه .

وقال له أحدهم :

- أراهن على أنك ستصبح مستشاراً بلدياً .

وللحق، لم تكن الفكرة سيئة. فقد كان شخصية مهمة. ومن وقت لآخر، كان يلقى أمه بعد الظهر في المتجر وهي تثرثر مع مارت. وحالما تراه يصل، تتذكر أن عليها مشاوير مستعجلة يجب أن تقوم بها .

وذات مساء، في الشارع، ارتطم تقريباً بامرأة تمشي بسرعة حاملة طرداً في يدها. ولم يكد يتوفر له الوقت لأن يعرفها حتى كانت تهتف به :

- يا له حظ أن التقيك .

كانت زوجة البير تيهون، أكثر حزناً وأكثر قلقاً من أي وقت مضى.

- أيمكن أن أكلمك دقيقة؟ ألا أتطفل عليك؟

وانتحيا جانباً بعض الشيء تجنباً لجمهور السابلة الذي كان يسيل حولهما في أضواء المتاجر .

- اصغ إلي . لا أدري إن كنت مخطئة. ولكنك كنت قلت لي فعلاً ان تلك المرأة قد اقسمت على ان ترحل وأنك رأيتها تأخذ القطار... حسناً! اراهن على أنها عادت ...

- هل لمحتها ؟

- لا ! وإنما ظل ألبير في البيت مدة بضعة أيام، كئيباً ومهدوداً... ماعاد يأكل ... وأخذ يعنف الأطفال من الصباح الى المساء، بما في ذلك الصغرى التي هي الأثيرة لديه... ثم، وذات يوم أحد، تغير كل شيء. وأنا التي كنت دفعته للذهاب الى السينما لكي يروح بعض الشيء عما في نفسه... وقد عاد متأخراً جداً، وهو يترنم بأغنية، وسترته تفوح بالرائحة كما من قبل... رائحة عطر تلك المرأة...

«لم أقل شيئاً ... راقبته.. من حينها، وهو يخرج كل يوم بعد الظهر، وفي الصباح، يغني الأغنية التي تعرف، تلك التي كان يصيح بها بكل عزمه في الباحة بقصد أن تسمعه هي...».

كان دو ريتر يصغي بخطورة وهو يهز برأسه.

- بماذا تنصحني ؟

- إذا أردت، سأحاول أن أستعلم ... وسأذهب لرؤيتك بمجرد أن أحصل على معلومات دقيقة...

- اعذرني لأنني أتسبب لك بهذا الإزعاج !

- لكن لا!... لا، أبداً !...

وقد بقيت لديه من ذلك الحديث صورة : فذلك الأبله ألبير الذي عاد يغني من جديد، في الصباح، أغنية حبه... أمر

يدفع للتساؤل عما إذا لم يكن دو ريتر يشعر بالحسد نحوه !

وأعلن في اليوم التالي ليا :

- زوجته تراودها الشكوك، ينبغي أن تلزما الحذر... أين تلتقيان اثناكما ؟

كانت مؤجرة البيت في الغرفة، وألقت ليا نظرة نحوها وفي النهاية أقرت :

- هنا ...

وترافقت هذه الكلمة كعلامة تنقيط بضربة بقبضة يد رونيه على الطاولة الصغيرة.

- ما هذا الذي ترونيه؟ إنك تستقبلينه هنا الآن؟

- لكن...

- ما من لكن ... لا أريد، أتسمعين، أن تستقبلي رجلاً عندي !

- تبصر يا رونيه !... إنه هو الذي يدفع الإيجار ...

- وبعدها ؟

ويندر له أن يكون استولى الغضب عليه بتلك السرعة. كانت عيناه تلمعان. ويبحث هو عن شيء يحطمه فاكتفى بتمثال صغير عديم القيمة.

وردد بصوت أصم

- قذارة. استقباله هنا !...

- لكن يا رونيه ...

- وهو تارك من دون شك منامته هنا، لا ؟

ونظر في عينيها، ورأى انها مترددة.

- يا لرعد السماء ! وأنا الذي قلت ذلك في الهواء، كيفما

اتفق . هكذا اذن، منامته هنا؟ وخفا قدميه ؟..

ونقب في قطع الأثاث، ووجد المنامة التي مزقها، ليس من دون بذل مجهود عنيف .

- حقاً ! اتساءل عما تفكر فيه ...

وقد آثرت المؤجرة أن تخرج على رؤوس أصابعها .

- من يسمعك يا رونيه، قد يتبادر اليه أنني أنا التي تزوجت...

- ليس الأمر هو نفسه ! هذا غير ذاك.

- لن تجعلني أصدق انك شاعر بغيرة .

- هذا لن يعنيك .

- اسمعني ... اهدأ ... أتحب أن أقول لك ما حقيقة المسألة؟ إنك لست غيران وإنما مغيظ... ويضايقك أن يستطيع شخص آخر، وبخاصة رفيق قديم، أن يبدو وكأنه أخذ محلك .

- أتزعمين انه أخذ محلي؟

- لا . بل إنك أنت من يظن ذلك. لقد سئمت من موافاته في الفندق ... هذا غير كون الشرطة قد ينتهي الأمر بها لخلق متاعب لي ... فأنت تعرف أنه لا يحق لي أن أشتغل هنا... إلى أين ذاهب يا رونيه ؟

- ليس لأي مكان !

وخرج. وسار في الشوارع . كان هائج الغضب، منحرف المزاج. ولم يبدأ ذلك من اليوم ! وقد حلت ساعة الغداء الآن! سوبيرو بكاسكيته على رأسه! ومارت التي تجد في كل يوم صحناً صغيراً جديداً، وينقلب كل كيانها اذا حدث مصادفة أنه لم يأكل منه.

ولم يكن الأب ينبس بكلمة أبداً. وقد وقعت عليه كل تلك التغييرات في حياته من دون أن يأتي بأدنى حركة ويبدو أنه كان مدركاً لأن تدخله لن يفيد في شيء. كان يتناول طعامه . ويشمل غليونه المصنوع من زبد . ويذهب متكتم الحركة دائماً، ممحيا، بخطى قصيرة، وعندما لا يكون في الخارج فهو يلزم مكاناً في الورشة بتواضع مع الأحدب .

وذات يوم بعد الظهر، وجد دو ريتر في غرفة الطعام، وأمام صحن من الحلويات، إحدى العمات سوبيرو، فخرج من فوره من دون أن يحييها. وفي المساء، أبدت مارت دهشتها فصرخ :

- طوال حياتي، رفضت أن أرى أعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي . ليس ذلك كي أرى الآن أعمام وخالات ليسوا حتى أقربائي أنا ...

- كانت مارة مصادفة ...

- فلتمر على الرصيف الآخر !

وكان يكفر عن نوبات سوء المزاج هذه بإحضار هدايا صغيرة لزوجته، أو أيضاً بأن يهمس عندما يكونان منفردين وحدهما :

- يجب ألا تأبهي ... إنني منشغل لدرجة . ليتك تعرفين يا مسكينتي مارت، أية حياة عشت!...

- شئت!... لا أريد أن ترويها لي ...

هل كانت تساورها شكوك بأنه مايزال يلتقي ليا ؟ ليس الاحتمال بعيداً. فقد اتصلت مرة هاتفياً بالجريدة حوالي الظهر وأجابوها بأنه لن يكون أبداً هناك في تلك الساعة . ولم

تكلمه أبداً عن الأمر، وهو اذا علم به، فقد كان ذلك عن طريق أمين سر التحرير .

لم يكن مرحاً. ولم تكن هي بأكثر منه مرحاً. ولكنها على الأقل تبذل جهداً لإخفاء ذلك. وهي ما إن تراه، حتى يحدث شيء وكأنه ضغطة زر بداية الحركة. إذ كانت تبتسم، وتبحث عن شيء ترويه له .

وإذا كانت لا تعمد الى إحاطة كتفيه بذراعيها، فذلك لأنها تعرف أنه لا يطيق كثيراً حركات الحنان الصغيرة تلك .

وقد أكد لها بضعة أيام قبل الزواج :

- لا تطيق نفسي اندفاق العواطف الجديد بالسخرية.

وهي تتذكر ذلك! ولن تنساه أبداً. فقد كان لا تطيق نفسه أشياء كثيرة، مثل المئزر المطرز الذي فاجأته به في أحد الأيام.

- إنك تشبهين وصيفة غرفة نوم في أوبريت ! وبالضبط، إذا لم يقل لها :

- بإثارة أقل.

كان لا يطيق أن يزعجه أحد عندما يعمل في غرفته، لا يطيق أن يسأله أحد عن توزيع أوقاته. وعندمايذهبان معاً الى المسرح، يخرج وحده في فواصل الاستراحة، تاركاً اياها في مقعدها وبيدها البرنامج... لا يطيق كذلك كيس السكاكر الذي اعتقدت أن من الضروري أخذه معها الى المسرح .

- أتوسل إليك ! لا تذكريني بأمي ...

ولم تفقد مارت شجاعتها، اذ بدا لها أنها في النهاية ستتوصل لأن تفهمه. وكل الأمر يتمثل بألا تكون النظرة اليه

على انه شخص عادي. فهو ذات صباح، وعقب زواجهما بمدة قصيرة جداً، قام بتمزيق احدى الصور له والتي كانت تحتفظ بها منذ أكثر من عشرين عاماً، واثبتتها فوق سريرها محاطة بشريط لونه زهر .

- ماذا تفعل يا رونيه ؟

- هذه الصورة تثير السخرية .

كانت صورة تمثله في الريف مع عائلته . وبالمقابل فهو قد نظر الى أخرى. بمحاباة، وصلت به الى حد ضحكة تهكم صغيرة.

- ماذا بك ؟

- لاشيء .

ولم تكن مع ذلك غير صورة جواز سفر ! كان في السادسة عشر . ولاشك في أنه كان خارجاً من مرض منذ مدة قصيرة جداً، ذلك أنه بدا فيها نحيلاً وشاحباً وشعره فيها اطول ايضاً مما هو عليه الآن . وما يستوقف فيها كان تعبير التحدي ... فقد لاح وكأنه يريد أن يعض .

وسأل :

- أتحبين هذه الصورة ؟...

- أحبها كلها مادامت أنت ...

وادركت أن هذه الإجابة لم ترق له بالمرة. كان يفضل أن يسمع نفسه يقال له :

- أحبها، نعم! فأنت تبدو فيها ولد أزقة صغيراً...

وفي يوم الأربعاء، اذ تناول العشاء مع الخالة ماتيلد، فإنه كان يخرج بعدها تاركاً المرأتين معاً. وكان بمقدورهما استغلال

ذلك وإطلاق العنان لما في قلبهما، تتكلمان عنه بقدر ماتريدان، ذلك أن العجوز سوبيرو لا يتأخر الأمر به ليذهب الى النوم.

- الا تجدين أنه حزين يا عمتي ؟

- إنه الآن افضل كثيراً مما كانت عليه حاله عند وصوله... ففي أول مرة رأيته مجدداً فيها، افزعني منظره فعلاً...

- إنه مايزال يسبب لي الخوف أحياناً الآن !

- سيتغير قليلاً قليلاً ... فكري بكل ما عاناه من عذاب ... فكري بأنه قضى حتى زمناً في السجن ... الا يحدثك أبداً عن ذلك ؟

- أبداً .

- لن يدهشني قط اذا ماكانت هذه الذكرى هي التي تتآكله من الداخل ... وعليك أنت أن تنسيه اياها شيئاً فشيئاً ... يجب أن تكوني حنونة جداً...

- لا يحب أن أبدي له الحنان .

- وأن تكوني صبورة...

- اقسم لك على أنني كذلك يا خالتي ! وإنني لأتساءل عما اذا لم اكن مفرطة في ذلك. هل ينبغي أن أدعه يرى تلك المرأة مجدداً ؟

- أية امرأة ؟

- تلك التي قدم معها الى هنا. أعرف أنه ما يزال يراها.

خلال ذلك الوقت، يكون دو ريتر منصرفاً لشرب أنصاف زجاجات في مشرب آرثوا للجمة، مع رفاقه الشباب الذين مايزالون على استعداد لسماع حكاياته. ومع ذلك، فقد بدأت

تحدث انشقاقات . وقد جاء ذلك من غلام في الثامنة عشرة يدعى بيلليه، وهو فتى نحيل، أشقر، له نفس السيماء المتأكدة التي كانت لرونيه في مطلع شبابه.

وقد بدأ بالإبتسام لبعض القصص العجيبة. وكان عليه أن يقول فيما بعد إن دو ريتر عيار يخلط عليهم ويخدعهم بقصصه.

ولم يكن أحد يقر بذلك، إنما الإحساس به كان ماثلاً . وبدأت ترتسم معالم معسكرين : الذين يصدقون كل شيء والذين بدؤوا يرتابون.

أما بيلليه، فلم يكن يتكلف الحرج، لينهض بعد بضع دقائق في منتصف جملة، معلناً للآخرين :

- أنا ذاهب للقيام بدورة.

ذات ليلة، لمحه دو ريتر في مقهى الموسيقى، غير بعيد عن ليا. وفي اليوم التالي سألها :

- هل وجه أي كلام اليك ؟

- من ؟

- الأشقر الشاب الذي كان يحوم حولك البارحة في المقهى.

- الطالب ؟

- اذا شئت . ماذا قال لك ؟

- لا شيء... قدم لي نارا...

- أهذا كل شيء ؟

- هل انتهيت يا رونيه ؟ صرت لا تحتمل ! قبل أن تتزوج، كان بمقدورنا أن نتفاهم . الآن، غيرتك مما يثير السخرية.

لكن بلى، لأن الأمر لم يعد البتة هو نفسه !

- اذا وجه.هذا السافل الصغير الكلام اليك مرة أخرى، ستتكرمين عليّ بعدم الرد عليه. وألبير؟ ماذا يخترع هو الآخر؟

- قدم لي خاتماً. وهو يعتقد بأن زوجته ترتاب بشيء ما وأقسم هو على انها اذا ماأحدثت له فضيحة، فانه سيرحل معي على أن يبقى ...

الفيرموت دائماً، السيكارات، ونافذة الزاوية مفتوحة... الظهر وعشر دقائق ! ويحمل نفسه ويمشي وفي يده عصا جديدة من الخيزران تم تركيب المقبض المذهب عليها... وأحياناً، بعد الظهر، كان يمر في شارع الكومون، ويصفق علبة الرسائل في الباب الأخضر .

- أنت، أيتها البلبل العجوز، أرجوك أن تستكتي . قالها مرة للآنسة النبيلة بمناسبة أنها سمحت لنفسها بأن تسدي له نصيحة .

ومن يومها، وبمجرد أن يدخل، كانت تنهض وتلم ما تعمل به وتغادر بوقار. أما بالنسبة لأمه، فقد لزمت نفس نظرتها اليه: كانت النظرة استجواباً كاملاً! ويبدو عليها وكأنما تتساءل عما اذا حدث ذلك أخيراً .

ماذا ؟ ماكان بوسعها أن تقول ماهو. ولكن شيء ما؟ فبالنسبة اليها، لم يكن بدّ، كالقدر، من حدوث شيء لدرجة أنه يخيل للمرء أنها كانت تنتظر ذلك بنفاد صبر سريّ.

- هل مارت بخير ؟

- نعم طبعاً .

- ألا تنتظر طفلاً بعد ؟

كان ذلك يثير اضطرابها، مادامت قد اعتقدت أن الزواج لم يحدث الا بسبب ذلك .

- لم تقدم على عمل آخرق على الأقل ؟

- أي عمل أخرق ؟

- لا أدري، أنا . اذ يوجد بين عائلات اليوم الشابة من لا يريدون أن يرزقوا أطفالاً ويسلمون أنفسهم لممارسات وأساليب ...

ولم يكن ممكناً الضحك من ذلك .

- اهدئي بالاً يا أمي .

- وهل أخذت تعتاد طبعك ؟

- بلى، طبعاً . فمارت ذكية ...

- ليس الأمر أمر ذكاء. ينبغي أيضاً أن ترضى بكل نزواتك. وأنا أعرف شيئاً عما أقول ... والخالة ماتيلد؟

- جاءت البارحة.

- كان بمقدورها أن تستغل مناسبة زواجك لتعتذر لي وتصلح مابيننا .

- لم تعطيها الفرصة أنت.

- لم يكن علي أنا أن أبادر ...

... الأولاد الصغار الذين كانوا يخرجون من المدرسة المواجهة ! والحافلة الكهربائية كل أربع دقائق... وصور الأشخاص على الجدران .

- أنا ذاهب ...

- هل آن ؟...

نعم، وكان يود فعلاً أن يذهب لعند ليا . ولكنه خشي أن

يجد نفسه في مواجهة البير . فآثر أيضاً أن يذهب لعند زوجة هذا الأخير، في المكتب الأحمر للفندق .

واوضح لها:

- ليس عندي للآن شيء محدد . اعتمدي عليّ.

. اتدري أن البير متأثر بقوة منذ أن عرف من أنت؟ لم يساوره أي شك بأنه قد استقبل كنزيل في الفندق رفيقاً قديماً... والآن، إنه يتذكرك جيداً... وقد كلمني عن بليار صغير كنتما تتصبانه في الباحة...

نعم... ولكن هذا أخذ يتعبه، في الوقت الحاضر.. وانصرف يفكر بحنين بحقيبة سفره المملاقة ذات الزوايا النحاسية والتي كان أودعها في مستودع الأمانات، والتي كان رغم كل شيء يشعر بالخزي منها.

- اسرع يا رونيه! فاليوم هو نهار ذهابنا الى المسرح... كان غنياً ! يدخن سكائر مصرية مذهبة الطرف تثير أحلام رفاقه الشاب . بل كان يفكر حتى بشراء سيارة جديدة.

وفي اليوم التالي عند ليا، كانت المؤجرة بالأزرق هي التي فتحت له الباب .

وسأل :

- أليست هنا ؟

- خرجت لمهمة في السوق ... ولن تلبث أن تعود .. وكانت المؤجرة تكذب ! فليا عندما عادت، كان بديهياً أنها قضت ليلتها في الخارج، ذلك أنها لم تكن في ملابس الصباح.

- من أين تأتين ؟

- وما الذي يمكن أن يعنيه ذلك لك ؟

- من أين تأتين ؟
- أراد البير أن أنام طوال ليلة معه... إنها أول مرة...
- وأين بتما ليلتكما ؟
- في الفندق الصغير الذي تعرف ...

وكانت تكذب ! وأثار ذلك اشمئزازه! وشعر بالإنهاك. وهو لا يكاد يملك ما يكفي من الشجاعة كي يذهب ويتناول غداءه وهو في مواجهة تاجر الأحذية الهرم ذي الكاسكيت .

- أنت عاهر !
- إنك لم تتذمر دائماً من ذلك .
- لابأس ... سنّيه !

وفضل أن ينصرف . ولكن بعد الظهر، تدبر أمره كي يمر مجدداً على فندق البير. ولم يبد على السيدة تيهون آثار بكاء وتعاسة أكثر من المعتاد .

وسألته :

- أعندك أخبار ؟
- ليس بعد . وأنت ؟
- لاشيء... بل وأتساءل عما اذا لم أكن غلطت ... فإنه عاد للعلف بالأحرى...
- أهو في سفر ؟
- أبداً، بالمرة... وقد خرج لتوه ليذهب الى المصرف...
- ألم يكن غائباً في سفر الليلة المنصرمة ؟
- لماذا تسأل ذلك ؟ لا! كان هنا !
- آه!
- هل اعتقدت بأنك التقيته في مكان ما؟

- شخص يشبهه، نعم.

- لا يمكن أن يكون هو ... فنحن ننام في نفس السرير..ونومي خفيف، وبخاصة منذ بعض الوقت ...

سألته مارت بعد أن تناولا عشاءهما :

- هل تضجر ؟

ورد بوحشية :

- لا !

إن كنت أفعل شيئاً لا يروق لك، يجب ألا تخاف من أن تقول لي ذلك . وإذا أردتني أن أغير أي شيء كان...

- لا!

- هذا الشهر، ضاعفنا رقم أعمالنا تقريباً، بفضل التحسينات التي أجريتها على المحل... ماذا بك ؟

- الام عصبية.

- إنها في العائلة. فأمك تشكو من أنها لا تستطيع أن تنام من شدة ماتعاني من ألم. الا تأخذ حبوباً أبداً ؟

- لا .

ونهض، وتمطى، ومشى حتى المشجب .

- أخارج أنت ؟

- الا أخرج كل يوم ؟

- نعم...

ولكن ذلك المساء، كانت قلقة، من دون أن تعرف لماذا . لم تكن تحب أن ترى ملامح وجهه مكدودة هكذا . كانت خائفة من نظرته الثابتة.

- قد تحسن صنعاً ذات يوم إذا ماقمت بسفرة قصيرة الى

باريس أو الى مكان آخر. سيسري ذلك عنك. فأنت لم تخلق كي تبقى محتجزاً في متجر...

- ولكنني لا أمكث فيه أبداً !

ومس جبينها بشفتيه مسا خفيفاً وتمكنت هي من التفوق على رغبتها في البكاء. وتوسلت اليه بخجل

- لا تتأخر في العودة الى البيت كثيراً جداً.

وسمعت الباب يغلق من جديد، والمفتاح الذي يدور في القفل. وفتحت الجريدة وقرأت مقال زوجها اليومي فيها الذي يوقعه : كو فاديس، والذي كان يعالج بصورة خفيفة أحداث اليوم الجارية .

ثم أطفأت النور وصممت تنام . ومن المدينة لم يسمع إلا بضع حافلات كهربائية، وأبواق سيارات نادرة، ورنين جرس دار عرض أفلام قريبة.

في لحظة ما، اعتقدت أنها سمعت صوتاً في الغرفة وهمست :

- أهذا أنت ؟

ولكن لم يكن هنالك أحد .

كان مقهى الموسيقى يضم شرفة يكن لها معتادو المقهى إعزازاً خاصاً . ومن الأسفل، لمح دو ريتر ليا جالسة الى طاولة مع ذلك السافل الصغير بيلليه الذي لم يشعر في حياته بذلك القدر من التيه .

وطوال ساعة، تمشى في الشارع ويده في الجيب الأيمن لمعطفه، مسدداً نظرات قصيرة الى المقهى.

ثم، وعندما خرج الثنائي، تبعه محتفظاً بمسافة. وسلكت

ليا طريقاً لا يقود لا الى بيتها ولا نحو مركز المدينة وكان بيلليه، الذي بدا منصرفاً للضحك، يمسك بذراعها ويروي قصصاً بصوت مرتفع لدرجة بحيث يسمع أحياناً من على الرصيف الآخر.

وانعطفا يساراً، ثم الى اليمين ... وبلغا زقاقاً منحدراً حيث كان الطلاب يعيشون عيشة نحل في خلايا مكتظة بالغرف المفروشة .

لاحا كلاهما معتادين قبل الآن على الطريق. ودفعا الباب الرابع، الذي لم يكن مغلقاً بالمفتاح، كي يتاح للمستأجرين ان يعودوا من دون إيقاظ المؤجرة.

عندئذ خطا دو ريتر بضع خطوات بخفة، ودفع الباب بعدهما بثلاث ثوان، وميز القامتين في الرواق المعتم للمدخل عند أسفل الدرج .

قال بصوت جاف :

- ليا !

واستدار أحد الطيفين. وفي ذات اللحظة، ومن خلال جيبه، أطلق دو ريتر طلقة من المسدس على الشاب الذي لم تصدر أية صرخة عنه وأطلق مرة ثانية، من دون سبب .

وصرخت ليا من أعماقها :

- رونيه !..

ولكنه كان قد خرج معيداً إغلاق الباب بحركة مفاجئة. وانطلق يعدو مسافة مائة، مائتي متر، ويدور في أزقة صغيرة ليطفو على السطح في شارع كبير، وكان يجتازه ليغوص ثانية في شبكة كثيفة من الأزقة الصغيرة.

- أيمكن أن أدخل يا رونيه ؟

- كانت مارت تحمل الصحفة بنفسها. فهي لم تكن تريد أن تأتي الخادمة لتخدم زوجها في سريره. وحين صارت في الغرفة أصابتها الدهشة، ونادت بصوت تغيرت نغمته :

- رونيه !

ثم بسجل صوتي أعلى :

- رونيه !...

لم يكن ترتيب السرير قد تغير، وقد بقيت المنامة مطوية على الوسادة

- رونيه !...

وغرفة الحمام كانت خالية، فوضعت الصحفة بخفة على زاوية الطاولة خشية أن تدعها تسقط من بين يديها .

وفي نفس اللحظة كان صوت يصيح من الأسفل :

- سيدتي !... سيدتي !...

- ما الأمر ؟

- يطلبونك سيدتي ... الأمر ملح ...

وتركت الصحفة في الغرفة، وتدحرجت تهبط الدرج الى المتجر بسرعة، فوجدت رجلين على قدر من تقدم العمر يلوحان مرتبكين :

- هل زوجك هنا ؟

- لا . وكنت بالضبط أبحث عنه .

- هل قضى قسطاً من الليل هنا ؟

- اسمعا أيها السيدان ...

- شرطة !... اعذرينا ... يجب أن نفتش البيت...

- ولكن ...

- هذه الليلة قتل زوجك بطلقتين من مسدس فتى صغير في الثامنة عشرة، وهو طالب يدعى بيلليه...

وصرخت من أعماق كيانها :

- ولكنني لم أسمع يوماً بهذا الاسم .

وأزاحاها بلطف . وكاد العجوز سوبيترو، الذي كان عائداً من شرب أول قدح صغير له، الا يتمكن من دخول البيت الذي كان يقوم على حراسته شرطي بالزي الرسمي .

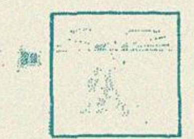
وقد تجمع خمسون فضولياً أمام الباب .



عاد رونيه شوفالييه مع صديقة تدعى ليا إلى مدينة مسقط رأسه بعد خمس وعشرين سنة من مغادرته إياها. ولم يتعرف الناس على هويته.

يهيم أياماً عديدة في شوارعها من دون أن تفهم ليا الدوافع التي أراد بسببها ان يأتي ليقيم في هذه المدينة.

يقرر في النهاية رؤية عمته وامه وشابة تدعى مارت ظلت دائماً تكن الحب له. ويتزوجها. إلا أنه بقي يذهب في كل يوم لرؤية ليا، التي ستتسبب يوماً بأسلوب حياتها السهل بفاجعة لم يكن مناص من وقوعها.



دار المدى للثقافة والنشر